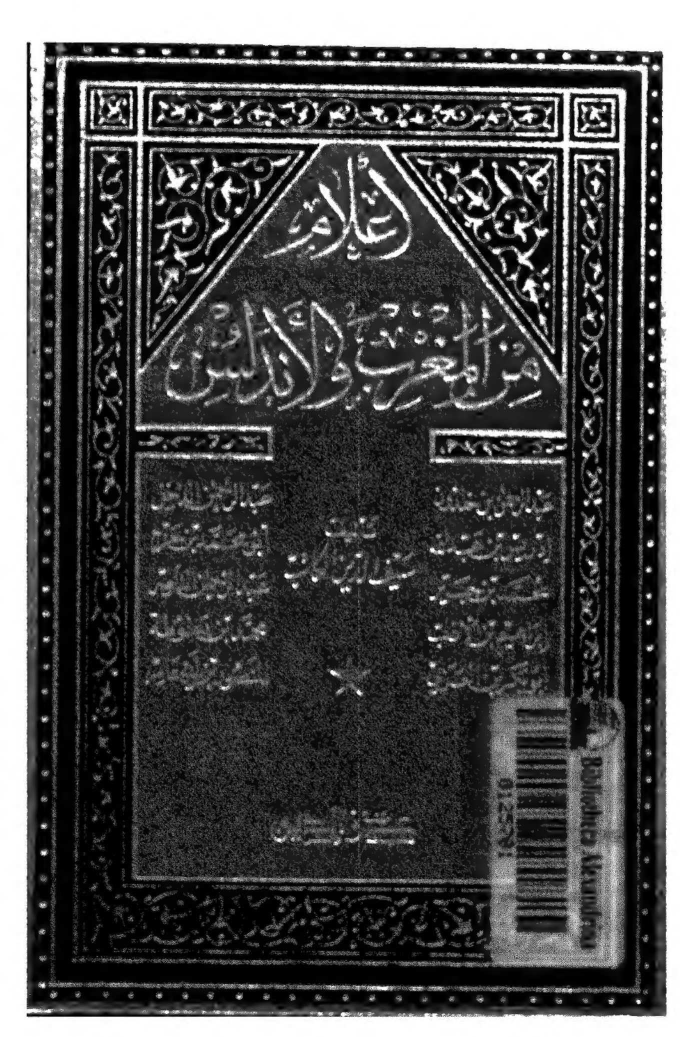
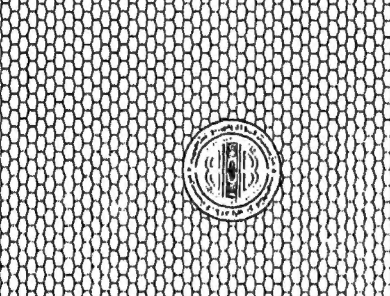
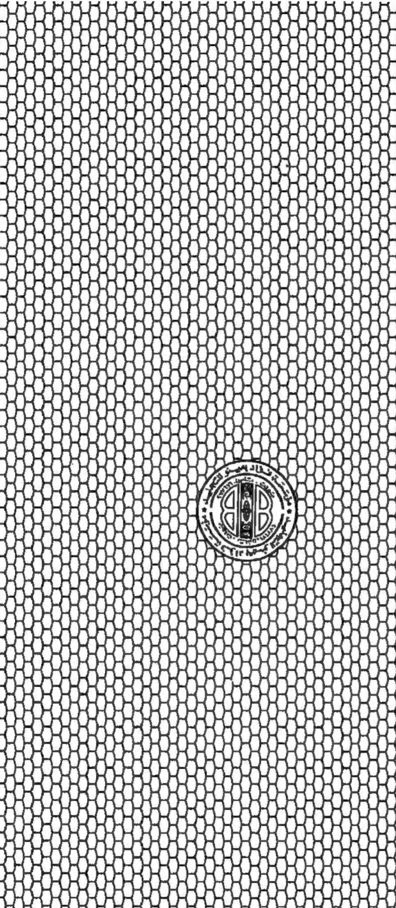

أعلام
من المغرب والأندلس
تأليف





العلامة

عبد الرحمن بن خلدون

أعلام من المغرب والأندلس

١

العلّامة
عبد الرحمن بن خلدون

تأليف
سيف الدين الكاتب

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦ - ٢٧٥٥٣٢ - ٢٧٥٥٦٣ - ٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت - لبنان

الفصل الأول

عصر ابن خلدون

ـ ١ ـ

بعد انهيار الحكم الأموي في المشرق..
أمكن لعبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، أن يُفلت من أيدي العباسيّين، ويلوذ ببلاد الأندلس.. فيؤسس فيها دولةً كانت امتداداً واستمراراً للحكم الأموي في المشرق..
وعُرف هذا الخليفة الأموي في التاريخ باسم «عبد الرحمن الأول ـ الداخل» وكان يلقب «صقر قريش».

كان دخول عبد الرحمن الأول بلاد الأندلس سنة (١٣٨هـ-٧٥٦م)، وبعد نحو من ثلاثة قرون، سقطت الخلافة الأموية التي كانت هي منبع الحضارة الأوربية الحديثة، وكان سقوطها بانقضاء حكم هشام بن محمد الأموي، المعروف بهشام الثالث، والملقب: بـ «المعتدّ بالله»، وذلك سنة (٤٢٢هـ-١٠٣١ م).

ثم انتهبَ الأقاليم الأندلسية عدة دويلاتٍ، ساسها قادة وزعماء ثوار عُرِفوا في التاريخ بلقب «ملوك الطوائف».

ثم ما لبث حكم ملوك الطوائف أن سقط في الأندلس، وقامت على أنقاضه دولة «المرابطين»، التي أعلنت اعترافها بالخلافة العباسية في المشرق، وكان أمراء الدولة المرابطية

يتسمون بأمراء المسلمين، وقد لعبوا دوراً خطيراً على مسرح السياسة الإسلامية، وكان قيام أمبراطوريتهم على يد «يوسف بن تاشفين البربري»، أحد أسباب إعادة التماسك إلى الامبراطورية الإسلامية، في زمنٍ استشرى فيه حقد النصارى.. واشتدت شوكتهم في محاربة المسلمين، ومحاولة تقويض دولتهم.

ثم ما لبثت قبيلة بربرية أخرى، أن ثارت على الدولة المرابطية، واستطاعت أن تنتزع منها الحكم، لتقيم دولة «الموحدين»، التي أتيح لها أن تبسط نفوذها وسلطانها على بلاد الأندلس، وبلاد الساحل الإفريقي من المحيط الأطلسي إلى حدود مصر.

وأصول الدولة الموحّدية ترجع إلى قبيلة

«مصمودة» البربرية، وكان أول زعمائها محمد ابن تومرت الذي ناوأ الدولة المرابطية، وخاض معها معارك ضاريةً فقد فيها الكثير من جنده، فلما مات سنة (٥٢٤ هـ ـ ١١٢٩ م) خلفهُ «عبد المؤمن بن علي»وكان سياسياً محنكاً وقائداً ماهراً، استطاع أن يُعيد إلى الموحدين قوتهم، ويَردَّ إليهم هيبتهم، فاستولى على كثير من بلاد (السوس) في حياة «علي بن يوسف بن تاشفين»، مما أضعف الدولة المرابطية، وكان نذيراً بسقوطها.

وشهد عصر الدولة الموحدية تمرد نصارى الأندلس، وطمعهم في أملاك المسلمين في تلك البلاد. وكانت بين الطرفين وقعات ومعارك عنيفة، ثم اتخذ التمرد النصراني صبغة الحروب

الصليبية الشرسة، فكانوا كثيراً ما يُغيرون على ثغور المسلمين في الأندلس، فيقتلون ويسلبون ويأسرون، وربما لقوا جيشاً إسلامياً فقاتلوه، حتى كانت الموقعة المشؤومة التي عرفت «بموقعة العُقاب» بين جيوش «الفونّس» ملك إسبانيا النصرانية، وجيوش الناصر لدين الله، الموحدي، والتي انتهت بإبادة الفرقة الموحدية، والقضاء عليها، في أوائل القرن الهجري السابع، وتعد هذه الوقعة نذيراً بنهاية قوة المسلمين في الأندلس والمغرب على السواء، بل إنها كانت نذيراً بقرب سقوط الدولة الموحدية التي لم تقم لها بعدها قائمة.

وعندما وُلِدَ العلاّمة «ابن خلدون» كانت معظم بلاد «الأندلس» قد أصبحت في قبضة

ملوك الإسبان النصارى، ولم يبق للعرب في تلك البلاد إلا معقل واحد في «غرناطة»، التي سقطت بعد ذلك في قبضة الإسبان سنة (٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م).

أما شمال إفريقية، فقد تقاسمته بعد سقوط الدولة الموحدية ثلاثُ دول، حيث قامت دولة «بني مرين» في المغرب الأقصى، وقامت في المغرب الأوسط دولة «بني عبد الواد»، بينما قامت دولة «بني حفص» في المغرب الأدنى، الذي كان يُعرف آنذاك باسم «إفريقة».

وكان الصراعُ والتنازعُ على الحدود سجالاً بين هذه الدول، بل لقد كان الاضطراب والتنازع على الحكم سائداً في نطاق الدولة الواحدة، حتى لقد شاع أيام ابن خلدون أن

يتنازع الإخوة وأبناء العمومة على الحكم والسلطان.. وكان لهذا أثره في تكوين شخصية ابن خلدون وأسلوب تفكيره، ومنهجيته الاجتماعية والتأريخية كما سنرى في ثنايا فصول الكتاب الأخرى.



- ٢ -

لعل أبرز أسباب الصراع والتنازع على الحكم، في تلك المنطقة من العالم الإسلامي، ترجع إلى التركيبة الاجتماعية لسكان الشمال الإفريقي، حيث تتوزع قبائلُ « البربر » المغربية ، المعروفة ببأسها وحميتها الدينية ، كقبيلة « زناتة » و« صنهاجة » و« كتامة » و« أوربة» وغيرها. .

ولا شك في أن هذه القبائل لعبت دوراً خطيراً على مسرح السياسة الإسلامية في تلك

المنطقة، حتى كانت الدولة المنتصرة ـ في اغلب الأحيان ـ هي الدولة التي تستطيع أن تستميل هذه القبائل البربرية القوية.

فإذا طالعنا صفحة التاريخ إبان ظهور ابن خلدون، عرفنا أن هذا العلّامة كان أحدَ أساطينِ السياسةِ في زمنهِ، إلى جانب كونه أحد العلماء الشامخين الذين عرفوا في مشارق البلاد الإسلامية ومغاربها..

ولنعرض الآن بعض الأحداث السياسية التي وقعت أيام «ابن خلدون» والتي كان له في كثير منها مشاركة حقيقية أثرت في مجرى الأحداث.

استولى سلطان المغرب «أبو الحسن المريني»

على «تلمسان» عاصمة المغرب الأوسط [الجزائر حالياً]، وقضى على دولة «بني عبد الواد»، ثم استطاع أن يستولي بعد ذلك على «بجاية» و«قسنطينة»، ويقضي على دولة «بني حفص» سنة (٧٤٨هـ ـ ١٣٤٧ م)، يوم كان ابن خلدون في ريعان شبابه، وقد بلغ نحواً من ستة عشر عاماً.

لقد كان المغرب يومها نهباً للثورات والانقلابات. . وكانت هي السائدة على الساحة السياسية فيه، حتى كان الاستقرار يعني الشذوذ عن القاعدة.

ومن هنا فقد شغلت «أبا الحسن المريني» ثورات كثيرة في أطراف البلاد المغربية، حتى لقد ثار عليه ابنه «أبو عنان»، الذي كان أبوه

قد أنابه عنه في «فاس» عندما قصد إلى إخماد بعض الثورات في إفريقية.

وهكذا أعلن «أبو عنان» نفسه سلطاناً على المغرب، مما اضطر أبا الحسن المريني إلى استخلاف ولده «أبي الفضل» في تونس، والتوجه إلى «فاس» لإخماد ثورة ابنه الآخر «أبي عنان»، ولكنه لم يفلح في ذلك.

وانتهز «بنو حفص» فرصة غياب أبي الحسن المريني، فانقضوا على أبي الفضل في تونس، وتغلبوا عليه بقيادة الوزير «ابن تافراكين»، الذي أعلن عن تنصيب «أبي إسحاق الحفصي» على العرش، واستبدّ هو بالوصاية عليه، ليتاح له توجيه دفة الحكم من منصبه كوزير أول لأبي إسحاق الحفصي.

وقد كان دخول «ابن خلدون»لأول مرة ساحة الحياة العامة في زمن أبي اسحاق الحفصي هذا، حيث عمل كاتباً في خدمته منذ أوائل سنة (٧٥٣هـ-١٣٥٢ م) باستدعاءٍ من الوزير أبي محمد بن تافراكين.

ثم كانت مطالبة أمير «قسنطينة» الحفصي بعرش «تونس»، مما أدى إلى بعض الاضطرابات في أرجاء البلاد، ثم ما لبث أمير «قسنطينة» أن يشغل بالدفاع عن مركزه وسلطانه ضد «المرينيين» الذين عاودوا الزحف شرقاً بقيادة «أبي عنان»، الذي ذكر الناس بفتوحات أبيه «أبي الحسن المريني».

وبموت أبي عنان اضطربت أمور البلاد من جديد، للتنازع الذي اشتد بين أبنائه من بعده على عرش المغرب، ثم بينهم وبين عمهم «أبي

سالم» الذي كان في أيام أبي عنان منفياً إلى بلاد الأندلس.

وقد تمكن «أبو سالم» من التغلب على أبناء أخيه جميعاً، وما لبث أن نصب نفسه سلطاناً على المغرب الأقصى سنة (٧٦٠هـ - ١٣٥٨م). وقد كان لدى ابن خلدون من الحنكة والذكاء، ما أهله لتوقع هذا الانتصار، ومن ثم فقد عمد إلى الاتصال بالسلطان «أبي سالم»، وبقي يعمل في خدمته ردحاً من الزمن.

لقد كان لابن خلدون دوره الهام في تلك الفترة الحرجة من تاريخ المغرب العربي، نظراً لما يتمتع به من نفوذ بين أوساط القبائل البربرية القوية، التي كان انضمامها إلى أحد الأطراف المتخاصمة مؤشراً على كسب المعركة والانتصار

فيها. وقد بقي ابن خلدون أكثر من ربع قرنٍ يلعب دوره الخطير بين القبائل والسلاطين.

هـذا عن بـلاد المغـرب في عصـر ابن خلدون، بقي أن نشير هنا إلى أن البـلاد المصرية كانت إذ ذاك تحت حكم «المماليك»، وكـانت أوضاعهـا السياسيـة الاجتماعيـة على النقيض من أوضاع المغرب العربي.. حيث كان يسـودهـا عمـومـاً الاستقـرار السيـاسـي والاجتماعي.

أما البلاد الأوربيـة.. فقد كـانت آنذاك تشهد مخاض نهضة جديدة، عمت أرجاءها، غير أنها كانت قد قطعت كل علاقة لها بالعالم الإسلامي، بعدما أتيح لها أن تأخذ عن العرب المسلمين الكثير من أصول الصناعات والعلوم

والفنون، لتنهض بها في فترة غلبت على البلاد الإسلامية فيها سياسة الثورات والاضطرابات والمنازعات على الحكم والسلطة، مما أنهك الجسم الإسلامي.. الذي بدأ يتقهقر لما دبّ فيه من عُلل وأسقام سياسية واجتماعية وحضارية.

ثم جاءت الحروب الصليبية لتعمّق الشقة بين العالَميْن الأوربي والإسلامي، وتلعب دورها الخطير في عرقلة المسيرة الحضارية الإسلامية.



الفصل الثاني

ابن خلدون : ترجمته وحياته

- ١ -

هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم عبد الرحمن [أو عبد الرحيم] بن خلدون.

قال عن نفسه في آخر تاريخه الكبير المسمى : « العبر» ما نصه:

لا أذكر من نسبي إلى « خلدون » غير هذه العشرة ، ويغلب على الظن أنهم أكثر ، وأنه سقط مثلهم عدداً، لأن « خلدون » هذا، هو الداخل إلى الأندلس، فإن كان ذلك أول الفتح ، فالمدة لهذا العهد سبعمائة سنة ، فيكونون زهاء العشرين ، ثلاثة لكل مائة .

قال :

ونسبنا في « حضر موت » من عرب اليمن ، إلى وائل بن حجر أحد أقيال العرب ، معروف وله صحبة [مع رسول الله صلى الله عليه وسلم].

قال : وأصل بيتنا من « إشبيلية »، انتقل عند الجلاء، وتغلب ملك الجلالقة بن أدفونش عليها ، إلى تونس في أواسط المائة السابعة .

وقد ذكر ابن خلدون أن أجداده كان لهم شأن عظيم في الحياة السياسية في بلاد الأندلس، وكان أول من عُرِفَ بذلك منهم « كريت بن معد يكرب بن الحارث بنَ وائل بن حجر » وأخوه خالد. قال :

ولما دخل « خلدون بن عثمان » جدُّنا إلى الأندلس، نزل بـ«قرمونة» في رهطٍ من قومه حضر موت ، ونشأ بيت بنيه بها ، ثم انتقل إلى إشبيلية، وكانوا في جند اليمانية وكان لكريت من عقبه ، وأخيه « خالد » الثورة المعروفة بإشبيلية ، أيام الأمير عبد الله المرواني. ثار على أبي عبدة وملكها من يده أعواماً ، ثمّ ثار عليه عبد الله بن حجاج بمشورة من الأمير المرواني ، وقتله، وذلك في أواخر المائة الثالثة.

ونقل ابن خلدون عن ابن حيان قوله :

وبيت بني خلدون إلى الآن [زمن ابن حيان] في إشبيلية : نهاية في النباهة ، لم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية . قال : ولم يزالوا بإشبيلية سائر أيام بني أمية إلى زمان « ملوك الطوائف ». ولما غلب ابن عباد على إشبيلية استوزر من بني خلدون هؤلاء ، واستعملهم في رتب دولته ، وحضروا معه وقعة الجلالقة ، التي كانت لابن عباد ويوسف بن تاشفين على ملوك الجلالقة ، وقد استشهد في هذه الوقعة طائفة من بني خلدون ، ثم نصر الله المسلمين على عدوهم .

ثم كان لهم اتصال بالدولة الموحدية بعد ذلك ، وكانوا من أركان أهل الشورى، ثم

كانت أحداث واضطرابات في الأندلس ، اضطرت بني خلدون إلى النزول في « سبتة » حيث والوا سلطانها « العزفي » وكان له معهم مصاهرة ، قوت الروابط بينه وبينهم ، وأتيح لبعض أجداد ابن خلدون عزّ وسلطان هناك ، ثم لجأوا إلى تونس في آخر أمرهم واستقروا بها ، وكانت تونس في ذلك العالم المضطرب منارة الفكر في بلاد المغرب الإسلامي ، قد ازدهرت فيها المدارس العلمية والفكرية ، وعلى رأسها « جامع الزيتونة » العظيم.

قال الإمام الشوكاني في ترجمة ابن خلدون في كتابه « البدر الطالع بمحاسن مَنْ بعدَ القرن السابع »:

ابن خلدون : الإشبيلي الأصل،

التونسي ، ثم القاهري المالكي ، وُلد في أول رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة بتونس، وحفظ القرآن ومختصر ابن الحاجب الفرعي والشاطبيتين [في القراءات]، والتسهيل في النحو، وتفقّه بجماعة من أهل بلده ، وسمع الحديث هنالك ، وقرأ في كثير من الفنون ، ومهَرَ في جميع ذلك لا سيما الأدب، وفن الكتابة ، ثم توجَّه في سنة (٧٥٣ هـ) إلى «فاس» فوقع بين يدي سلطانها ، ثم امتحن واعتقل نحو عامين ، ثم ولي كتابة السر والنظر في المظالم ، ثم دخل الأندلس، فقدِم «غرناطة» في أوائل ربيع الأول سنة (٧٦٤ هـ - ١٣٦٢ م)، وتلقاه سلطانها «ابن الأحمر» عند قدومه عليه ، ونظمه في أهل مجلسه ، وكان رسولَهُ إلى عظيم الفرنج

بإشبيلية، فقام بالأمر الذي ندب إليه، ثم توجه في سنة (٧٦٦ هـ - ١٣٦٤ م) إلى «بجاية » [بالجزائر]، ففوض إليه صاحبها تدبير مملكته مدةً، ثم استأذن في الحج ، فأذن له ، فقدم الديار المصرية في ذي القعدة سنة (٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ هـ)، فحجَّ، ثم عاد إلى مصر، فتلقاه أهلها وأكرموه ، وأكثروا من ملازمته والتودد إليه، وتصدّر للإقراء في الجامع الأزهر مدة، ثم أقرّه الظاهر « برقوق » قاضياً للمالكية بالديار المصرية ، وذلك في جمادى الآخرة سنة (٧٨٦ هـ - ١٣٨٤ م)، فكان صارماً في قضائه ، وكان يعزّر [يؤدب]بالصفع ، ويسميه (الزج)، فإذا غضب على إنسانٍ قال : زجّوه ، فيصفع حتى تحمّر رقبته .

وعُزل ابن خلدون من قضاء المالكية ، ثم أعيد ، وتكرّر عزله وإعادته حتى توفي وهو في القضاء فجاءةً ، في يوم الأربعاء لأربعٍ بقين من شهر رمضان سنة (٨٠٨ هـ - ١٤٠٦ م)، ودفن بمقابر الصوفية ، خارج باب النصر، رحمه الله .



- ٢ -

لم يزل « ابن خلدون » منذ نشأ مكباً على تحصيل العلم ، حريصاً على التنقل بين مجالس العلم ، إلى أن كان الطاعون الجارف الذي أصاب « تونس » سنة (٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م)، ولابن خلدون يومذاك نحو سبعة عشر عاماً.

وقد هلك في هذا الطاعون كثير من الأعيان والمشايخ ، وهلك فيه والدا « ابن خلدون »، وكثير من مشايخه ، والذين نجوا من

الطاعون قصدوا إلى «المغرب» بعد انحسار سلطان « المرينيين » عن « تونس ». وكان ابن خلدون قد عزم على اللحاق بهم إلى المغرب ، إلا أن أخاه الأكبر « محمداً » صدّه عن ذلك.

ثم اتصل الوزير « ابن تافراكين » بابن خلدون ، وقلّده وظيفة الكتابة لدى السلطان « أبي إسحاق الحفصي »، ولم يكن قد تم لابن خلدون من العمر عشرون سنة . على أنه لم يُقِم طويلاً في هذه الوظيفة ، إذ قام أمير «قسنطينة» يطالب بعرش السلطنة ، ويزحف نحو تونس ، فيهزم جيش أبي إسحاق . وفي هذه الأثناء فرّ ابن خلدون ، ولم يرجع إلى «تونس» إلا بعد ربع قرن من الزمن .

إثر انهزام أبي إسحاق الحفصي ، ظل ابن

خلدون سنتين ينتقل من مدينة إلى أخـرى ، ومن بادية الى بادية ، يعاشر القبائل البربرية ، ويتصل بشيوخها وحكامها وكبرائها ، ثم استقرّ به المقام في « فاس » عندما اتصل بسلطانها : « أبي عنـان » الذي قـرّبـه واحتضنـه وأكـرم إقامته .

قضى ابن خلدون في « فاس » نحواً من ثمانية أعوام بين (٧٥٥ ـ ٧٦٣ هـ ـ ١٣٥٤ ـ ١٣٦٢)، واستطاع في هذه الفتـرة أن يختلط برجال الفكر والأدب ، حتى كانت له مشاركات نظم فيها الشعـر ، وألقى الخطب ، وخـاض غمار الحياة السياسية ، وتقلب هناك في عدة مناصب .

غير أنّ خلّةً في ابن خلدون كانت تطغى

أحياناً على شخصيته الفكرية ، فإذا هو رجل سياسة متلوّن، يشارك في إثارة بعض الفتن ، ويحرض على بعض المؤامرات ، مما أدى به في بعض الأحيان إلى الاعتقال والامتحان والسجن . ومن ذلك مشاركته في مؤامرات على السلطان « أبي عنان »، الذي قرّبه وأكرمه .

بعد هذه المحنة شخص ابن خلدون إلى الأندلس ، فاستقبله سلطان غرناطة « أبو عبد الله بن الأحمر» ووزيره الأديب « لسان الدين بن الخطيب » وأكرما إقامته .

وفي ظل وزارة ابن الخطيب أقام ابن خلدون في الأندلس أمداً ، حتى كانت بينهما صداقة كادت تنقلب إلى عداوة، بسبب الواشين الذين سعوا بين ابن خلدون وابن الخطيب ، مما

اضطّر ابن خلدون إلى مغادرة الأنـدلس إلى المغرب ، حيث أقام فيها سنوات عدّة في أعزّ المنـاصب وأرفعهـا ، ثم مـا لبث أن اعتـزل السياسة والمناصب جميعاً ، إلى أن كلفه سلطان المغرب باستمالة القبائل البـربريـة ، فلم يشأ رفض أمر السلطان ، وخرج من « تلمسان » إلى « منداس » في الصحراء المغربية .

وهنـــاك أقـــام ابن خلدون عنـــد بعض أصدقائه ومعارفه من بني عريف ، وأعلن من هنـاك اعتزال السيـاسة ، وأرسـل مـع بعض أصدقائه بإبلاغ اعتذاره إلى السلطان.

ونـزل ابن خلدون وعائلتـه في قلعة ابن سلامة ، حيث انصرف إلى كتابة تاريخه الكبير الذي سماه : « كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر

في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ». وكان ابتداء انصرافه لتأليف هذا الكتاب سنة (٧٧٦ هـ - ١٣٧٤ م)، وابن خلدون يومذاك في الثانية والأربعين من عمره . قال في آخر كتابه في الفصل الذي عقده للترجمة عن نفسه :

ثم طال مقامي هنالك ، وأنا مستوحش من دولة المغرب وتلمسان ، وعاكف على تأليف هذا الكتاب ، وقد فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناتة ، وتشوّقت إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار ، بعد أن أمليت الكثير من حفظي ، وأردت التنقيح والتصحيح ، ثم طرقني مرض أربى على البنية ، لولا ما تدارك من لطف الله ، فحدث

عندي ميلٌ إلى مراجعة السلطان « أبي العباس » والرحلة إلى تونس ، حيث قرار آبائي ومساكنهم وآثارهم وقبورهم .

فبادرتُ إلى خطاب السلطان بـالفيئة إلى طاعته والمراجعة ، فـما كان غـير بعيد ، وإذا بخطابه وعهوده بالإذن والاستحثاث للقدوم . فظعنت راحلاً عن بني عريف في رجب سنة (٧٨٠ هـ ـ ١٣٧٨ م). فوافيت السلطان أبا العباس بظاهر « سوسة »، فحيا وفادتي ، وبرَّ مقدمي وبالغ في تأنيسي ، وشاورني في مهمات أموره ، ثم ردني إلى تونس آمراً بتهيئة منزل لي ، وإجراء جزيل الإحسان ، فكنت في تونس في ظل ظُليل من عنـاية السلطان وحـرمته ، وبـعثـت في طلب أهــلي وأولادي ، وجمـعت

شملهم في مرعى تلك النعمة .

وكان السلطان قد كلفني بالإكباب على تأليف هذا الكتاب ، لتشوّقه إلى المعارف والأخبار واقتناء الفضائل ، فأكملتُ منه أخبار البربر وزناتة ، وكتبتُ من أخبار الدولة الأموية والعباسية وما قبل الإسلام ما وصل إليّ منها . وأكملتُ منها نسخة رفعتُها إلى خزانة السلطان .

ثم لم يزل الواشون يغرون السلطان بابن خلدون حتى كادوا أن يوغروا صدره عليه ، وأحس ابن خلدون بكل ما يدور حوله ، وفي سنة (٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م) استأذن السلطانَ وألحّ عليه في تخلية سبيله لأداء فريضة الحج ، فأذن له في ذلك ، فخرج ابن خلدون فأقلع إلى

الإسكندرية على سفينة لتجار مصريين كانت في مرسى تونس . حيث تفرغ لتجديد ما كان عنده من آثار العلم .

ونزل ابن خلدون القاهرة التي سماها (حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذرّ من البشر، وإيوان الإسلام ، وكرسي الملك). والتي كان شيخه قد حدثه لما سأله عنها فقال : من لم يرَها لم يعرف عزَّ الإسلام .

واشتغل ابن خلدون في مصر بالتدريس والإقراء في الجامع الأزهر، كما ولي قضاء المالكية ، ثم انقطع للدرس والتصنيف ، وتدريس الفقه المالكي بالمدرسة الظاهرية في حي (بين القصرين).

وفي السادس والعشرين من رمضان سنة (٨٠٨ هـ - ١٤٠٦ م) توفي المفكر المؤرخ القاضي السياسي الفقيه عبد الرحمن بن خلدون عن ثمان وسبعين سنة، حفلت بالأحداث. ولكن ابن خلدون لم يكن يدري (وما يعلم الغيب إلا الله).. أنه سيشغل رجال الفكر والثقافة في الشرق والغرب من بعده.

وخرج ابن خلدون من نصب الحياة ولغوبها بـ «العبر وديوان المبتدأ والخبر».. وإن كانت مقدمته وحدها.. هي التي كرّست سيرة هذا العلم الشامخ من أعلام الحضارة الإسلامية.. وخلدت ذكره في الخافقين.

* * *

الفصل الثالث

إبن خلدون : في ذمة التاريخ

إن المتتبع لخيوط سيرة هذا العلم الشامخ من أعلام المغرب الاسلامي ، ليرى بكثير من الوضوح : أن ابن خلدون كان على مدى أربعين سنة تقريباً ، واحداً من الشخصيات البارزة في تاريخ المغرب الإسلامي في تلك الحقبة من الزمن ، وكان له في تطوراتها وأحداثها تأثير واضح ، حتى يمكن القول : إن تاريخ حياة ابن خلدون كان بحقّ قطعة من

تاريخ الدول التي حكمت المغرب الإسلامي في عصره.

على أن ابن خلدون كان بعد ذلك شغل علماء الاجتماع الأوربيين الشاغل منذ أن اطلعوا على مقدمته أول مرة ، وحين برزت إلى الميدان دراسات علم النفس والاقتصاد وعلوم السياسة وفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع الحديث، عرف الفكر الأوربي قدر ابن خلدون واغترف من دراساته ما جعله أساساً في بناء نظريات علومه الحديثة ، في الاجتماع والاقتصاد والتاريخ والسياسة جميعاً .

وإذا كان ابن خلدون قد أقام قضاياه على نهج جديدٍ من الفكر، سبق فيه غيره من المؤرخين المسلمين ، حين تحدث عن النظم

السياسية وأنواع الحكم ، والخطط العامة ، كالقضاء والشرطة والإدارة ، وتطورها في الدول الإسلامية ، وعن النظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، وعن المهن والحِرَف والصنائع ، ووجوه الكسب والمعاش، ثم عن العلوم والفنون والآداب ، وهو ما عدّه (فون كريمر) تاريخاً للحضارة . . فإن ما ذهب إليه (فون كريمر) ليس إلا إطاراً عاماً للنظريات الحديثة ، التي تقوم عليها العلوم الإنسانية ، التي تفرعت وتشعبت إلى أنواع شتى من الفروع، تعدّ في مجموعها صورة للحضارة الإنسانية في تطورها التاريخي .

وهكذا نرى أنّ إبن خلدون ، قد خاض في مسائل من العلوم غدت من بعدُ أساساً لفروع

جديدة في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، وحسبك أن مفكري الغرب اعترفوا لابن خلدون بالريادة وفضل السبق في علم الاجتماع والحضارة وفلسفة التاريخ . ولهم في ذلك كلمات لا تعفينا هذه العجالة من اجتزاء بعضها لكثرتها واشتهارها .

يقول المؤرخ الانكليزي (أرنولدتوينبي) في فصل من كتابه الموسوعي : « دراسة التاريخ » الذي ظهر عام ١٩٥٦ م :

« إن ابن خلدون عبقرية عربية أتيح لها في فترة هدوء لا تتجاوز أربعة أعوام أن تبدع « مأثرة الحياة » [يعني مقدمة ابن خلدون]، على قدر من البيان الرائع لا يقل إبداعاً عما قام به « ثيوديد » و« مكيا فيللي » و« كلارندن » عمقاً

وسعة أفق، فضلاً عن القدرة العقلية الخالصة .

بل إن ابن خلدون ليبدو أكثر تألقاً ولمعاناً ، إذا ما قيس بكثافة الظلام الذي خيم على عصره . . مع أنه في مقدمة تاريخه العام ، قد استوحى وصاغ فلسفة للتاريخ هي دون ريبٍ أعظم عمل استوحاه وأبدعه عقل من العقول ، في أي عصر، وفي أي مكان .

وكانت تلك الفترة القصيرة الهادئة من حياة حافلة بالنشاط، هي التي أتاحت له الفرصة التي صاغ فيها فكره المبدع في صورة أدبية رائعة، هي ذلك العمل العبقري الذي يعرف بـ «المقدمة » . . فهي مأثرة حياته بلا ريب » .

أما المستشرق الألماني (فون فيسنديك)

فيقـول في مقـال لـه نشـرتـه مجلة « دويتش رونتشاو » عام ١٩٢٣ م عن ابن خلدون :

« إن مؤرخ الحضارة المسلم العظيم يقف فريداً في المشرق [أي في العالم الإسلامي]؛ لم يعقبه خلف ، ولم ينسج على منواله ناسج ، وإنا لنرى أن ما فكر فيه أو دعا إليه، هو ما يدور في أوربا القرن التاسع عشر تماماً ؛ وقد بقيت اتجاهات هذا المفكر والسياسي الإفريقي تدوي في معترك الأحداث ـ مهما كان مرماها ـ دوياً يتردد صداه في عالم الفكر المعاصر . . » .

هذه بعض أصداء ابن خلدون في الفكر الغربي المعاصر . . وهي تشير إلى الأثر العميق الذي أحدثته أفكار هـذا العلم الشامـخ من أعلام الحضارة الإسلامية في الثقافة والحضارة

الغربية ، وإن كان المؤسف حقاً أن نذكر هنا أن العرب لم يستطيعوا اكتشاف عبقرية هذا المفكر الإسلامي إلا من خلال الكتابات الغربية عنه في القرنين الأخيرين .

ففي عام ١٨٠٦م ترجم المستشرق الفرنسي (سلفستردي ساسي) لابن خلدون ، ونقل إلى الفرنسية فقرات من (المقدمة)، ثم نشر أجزاء أخرى منها مع عرض وافٍ ، عرف بها وبكاتبها العبقري .

ثم كان المستشرق النمساوي (فون هامار) أول من حلّل المقدمة واستنبط نظرية ابن خلدون في أفول الدولة وأسباب انحلالها ، حتى لقد دعاه (مونتسكيو العرب).

ثم ما لبث أن تناول عبقرية ابن خلدون

بالدراسة ، وأبرز جوانبها كثير من مفكري الغرب . . ومن لدن هؤلاء استطاع العرب أن يكتشفوا أبعاد عبقرية ابن خلدون . . فانكبوا على دراسته والكتابة عنه ، وتحليل كتاباته . . وأصبحت المكتبة العربية مذ ذاك تطالع كل يوم جديداً عن هذا العلم الشامخ من أعلام المغرب الإسلامي الخالدين .

* * *

إقـــرأ

في الحلقة التالية

الأمير

إدريس بن عبد الله

صدر للمؤلف

١ ـ أعلام الصحابة ـ ١ ـ ٣٢ في أربع مجلدات.
٢ ـ الإكليل في استنباط التنزيل ـ للسيوطي ـ تحقيق.
٣ ـ الأوائل في حضارة الإسلام.
٤ ـ رسائل في العدل والتوحيد.
٥ ـ روضة الناظر ـ في أصول الفقه ـ لابن قدامة ـ تحقيق.
٦ ـ السيرة النبوية في قصص.
٧ ـ شرح ديوان أمية بن أبي الصلت ـ بالاشتراك مع أحمد عصام الكاتب.
٨ ـ شرح ديوان جميل بثينة ـ معه كذلك.
٩ ـ شرح ديوان النابغة الذبياني ـ معه أيضاً.
١٠ ـ شرح ديوان الفرزدق ـ معه أيضاً.
١١ ـ قصص الأنبياء ـ ١ ـ ١٣ في مجلدين.
١٢ ـ كتاب الزيارة ـ لابن تيمية ـ تحقيق.
١٣ ـ مشاهير الفاتحين.
١٤ ـ هداية الحيارى ـ لابن قيم الجوزية ـ تحقيق.

* * *

الأمير

إدريس بن عبد الله

ودولة الأدارسة

أعلام من المغرب والأندلس

٢

الأمير
إدريس بن عبد الله
ودولة الأدارسة

تأليف
سيف الدين الكاتب

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢م

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٢٣٦٣٦ - ٢٧٥٥٣٢ - ٢٧٥٥٦٢ - ٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ٥١٠٥ / ١٣ بيروت - لبنان

الفصل الأول

جذور الثورة الادريسية

- ١ -

في سنة (١٣٢ هـ ٧٥٠م) سقطت دولة الأمويين في المشرق... تحت مطارق جيوش الثورة العباسية، وكان هذا يعني سقوط الدولة العربية العظمى التي حكمت بقاعاً شاسعةً من القارات الثلاث لعالم العصور الوسطى - آسية وإفريقية وأوروبا -، وكان سقوطها نهايةً لمدّ جديدٍ ثقافي وحضاري وعقائدي في الوقت نفسه.

ولقد وجد المؤرخون في قيام الدولة العباسية فاتحة عصر جديد في الاسلام، حتى ذهب (فلهاوزن) الى أن سيادة العرب التي كان يمثلها أهل الشام والبيت الأموي، قد انتهت، بينما انتصرت السيادة الفارسية عليها تحت شعار (الأممية الاسلامية). وذهب ماسينيون الى أن استلام العباسيين الحكم من البيت الأموي، يمثل نقطة فاصلةً في تاريخ الاسلام، ويضع الثورة العباسية في مصاف الثورات العالمية..

والواقع أن دعوة العباسيين التي استخدمت نفوذ (آل البيت)، واستغلّت تذمر الموالي من الحكم الأموي، كانت بلا ريب ثورة شاملةً، استطاعت أن تقلب كل المفاهيم السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة على عهد

الأمويين... ونتيجةً لذلك حظيت باستجابة جماهيرية واسعة.

ولكن القناع ما لبث أن سقط عن وجه الحكم الجديد! وكشفت هويته عن حقيقتها... فإذا المبادىء التي نادى بها العباسيون، وأقاموا عليها دولتهم، تذهب بعد حين أدراج الرياح... وما لبث العباسيون أن سلكوا نفس السياسية التصفوية، التي انتهجها من قبلهم الأمويون ضد خصومهم... لا بل كانت السياسة العباسية في ذلك اعنف وأشد قساوةً وأكثر بطشاً...

وكان العباسيون قد أطلقوا ـ إبان الثورة ـ شعارات كبيرةً فضفاضةً وغامضةً... يمكن تفسيرها حسب الأهواء، كما استغلوا كافة الدعوات والحركات الدينية والسياسية... وكان

من خطِتهم أن يُمنّوها بما تحلم به وتثور من أجل تحقيقه...

لقد كان هدفُ العباسيين الأكبر... أن تحظى ثورتهم بأكبر قدر ممكنٍ من الشعبية، بغية الوصول الى سدة الحكم وعرش الخلافة... والاطاحة بالحكم الأموي... وبعد ذلك يمكن للثورة العباسية أن تتخذ لنفسها المنهج الذي يضمن لها التفرد والاستقلال بالحكم والسلطة والنفوذ، وإذا اقتضى الأمر فإنها تستطيع أن تغير أسس دعوتها برمتها... وهذا ما كان!...

فإن أبا العباس السفاحَ الذي بويع بالخلافة سنة (١٣٢هـ - ٧٥٠م) لم يلبث أن أعلن في أول خطبة لهُ بعد مبايعته... أن الثورة العباسية قامت من أجل الهدف الشرعي

العظيم، ألا وهو تطبيق مبادىء الاسلام، التي انحرف الأمويون عن جادتها.

وعندما تولى بعده المنصور كان من أول ما قاله في خطبة مبايعته: «إنما أنا سلطان الله في ارضه»، وكانت تلك العبارة تشير صراحة الى اعتقاد العباسيين في أن سلطة الخليفة عندهم مقدسة، لأنها مستمدة من سلطان الله تعالى، وفي أن الخلافة حقٌّ لهم ورثوه عن النبي ﷺ.

ولكن ماذا كان من أمر شيعة البيت العلوي، التي كانت إحدى العناصر الرئيسية التي سارت مع الثورة العباسية، وناضلت في صفوفها؟!...

بعد نجاح الثورة العباسية أصيبت شيعة العلويين بخيبة أمل شديدة، وشعرت بأن أحلامها في الوصول الى السلطة تنهار مرة

اخرى. . . ذلك أن الدولة الجديدة قد وضحت هويتها، وبرزت صفتها العباسية المستقلة بصورة لا تدع مجالاً للشك، وهكذا رأى العلويون أنفسهم، وهم أبناء الفرع الهاشمي الذي قاد المعارضة ضد الحكم الأموي، وحمل راية الكفاح والثورة منذ موقعة (كربلاء) وحتى ثورة يحيى بن زيد بن علي في اواخر الدولة الأموية. . . رأوا أنفسهم مبعدين عن السلطة، بل وملاحقين مرة أخرى بعنف أكثر تركيزاً، وبطشٍ أشدّ وأنكى.

لقد كان العلويون ـ بما حملوا من أعباء الثورة ـ يعتقدون بأنها ستكون في النهاية لصالحهم، وكانت بوادر ذلك مبكرة ترجع الى سنة (١٢٧هـ ـ ٧٤٤م)، حيث عقد أقطاب بني هاشم اجتماعاً في (الأبواء) بين مكة

والمدينة من أجل اتخاذ موقف موحد والاتفاق علـى مرشـح منهم للخلافـة، وقد ضم هـذا الاجتماع أبا العباس السفاح والمنصور ـ وهما من قادة الفرع العباسي ـ وتم فيه ترشيح محمد بن عبد الله العلوي الملقب بالنفس الزكية، ليكون هو الخليفة بعد نجاح الثورة.

فماذا كان بعد ذلك؟!..

كان محمد بن عبد الله (النفس الزكية) واحداً من أبرز رجالات البيت العلوي، الذين رشحتهم الثورة للخلافة كما ذكرنا، وكان هذا الرجل حسَنياً، أي من أبناء السبط الحسن بن علي، وقد ساعد على تبوّئه ذلك المنصب المرموق بين رجالات البيت العلوي اعتزال آل (الحسين ابن علي) السياسة، مع انهم كانوا حملة الثورة إبان العهد الأموي. ومن هنا فقد انتقلت زعامة

الأسرة العلوية الى الحسنيين الذين تزعمهم النفس الزكية.

رفض محمد بن عبد الله (النفس الزكية) مبايعة أبي العباس السفاح بالخلافة، لأنه رأى ذلك أول بوادر العقوق للبيت العلوي، الذي واكب البيت العباسي في الثورة، وامتنَعَ كذلك ابراهيم اخو النفس الزكية عن المبايعة، فكان لامتناع هذين الزعيمين من أقطاب البيت العلوي صدى استياء وحذر في نفوس العباسيين.

وربما حاولت الخلافة العباسية أن تتجنب الاصطدام بزعماء البيت العلوي، فقد أخذ السفاح يتودد الى آل محمد النفس الزكية... إلا أن ذلك لم يُجْدِ نفعاً، لأن (النفس الزكية) كان مقتنعاً بأحقيته في الخلافة، ومن

هنا فقد أخذ يتابع اتصالاته ويبث دعوته بين الناس بكل همة ونشاط، داعياً الى الثورة على العباسيين.

ومرت هذه المحنةُ في عهد السفاح بسياسة المهادنة التي طبعت العلاقات العباسية العلوية طول عهده، حتى إذا جاء (المنصور)، وكان معروفاً عنه شدة الحذر، أخذ التأزم يشوب هذه العلاقات، وكانت بوادره باستبدال المنصور والي الحجاز ـ حيث تضطرم الثورة العلوية ـ بوالٍ آخر بسط له الأموال واغراه ليأتيه بالثائر العلوي حيث كان.



- ٢ -

أعلن محمد بن عبد الله (النفس الزكية) ثورته في رجب سنة (١٤٥هـ - ٧٦٢م) ، وحين وصلت الى المنصور أخبار خروجه في المدينة، وخروج أخيه (إبراهيم) في البصرة، سارع الى تشديد الحصار على الكوفة لمنع أهليها من الانضمام إلى الثائر (إبراهيم)، وأرسل الى محمد النفس الزكية جيشاً عظيماً جعل قيادته لولي عهده.

واستطاع الجيش العباسي الزاحف الى المدينة أن يظفر بمحمد النفس الزكية حيث تفرق أكثر جنده من حوله، فظل يقاتل حتى قتل.

ولم يستطع العباسيون أن يقضوا على الثورة بموت النفس الزكية، بل لقد ثار كثير من زعماء البيت العلوي بعد ذلك، كردة فعل على عمليات التنكيل والاضطهاد التي قام بها عامل المدينة العباسي ضد العلويين، مما دفعهم الى الثورة بتحريض الحسين بن علي ـ أحد كبار ـ العلويين ـ وبزعامته، حيث اندفع الثوار الى السجون فأخرجوا كلًّ من فيها، ثم بايعوا الحسين بالخلافة.

وعندما تناهت أخبار هذه الثورة الى الخليفة، أرسل الى الحجاز جيشاً التقى بالثوار

عنـد موقـع يقال لـه (فخ) يقـع بين مكـة والمدينة، حيث جرى قتال عنيف بين الفريقين، أسفر عن هزيمة الثوار ومقتل قائدهم.

والواقع أن اهمية هذه الحركة لا تقتصر على عملية اقتحام السجون في المدينة، كتدبير متمرد على السلطة العباسية، بل لقد كان لها نتائج بعيدة كان لها آثار خطيرة على صعيد التحرك العلوي ضد العباسيين.

كان من بين زعماء البيت العلوي الذين شاركوا في هـذا التمرد، ونجـوا بعد معـركة (فـخ) أخـوانِ لمحمـد بن عبـد الله النفس الزكية، هما يحيى بن عبد الله وأخوه إدريس بن عبد الله.

نجح يحيى بن عبد الله في الفرار من قبضة العباسيين، حيث ذهب شرقاً حتى استقـر به

المقام في بلاد الديلم الجبلية، جنوب بحر الخزر، وهناك جعل يدعو لنفسه، حتى قوي أمره، وبايعته جموع كثيرة من المناطق المجاورة، وكان ذلك زمن الرشيد حفيد (المنصور) العباسي.

أما (إدريس بن عبد الله العلوي) ، فكان الأخ الرابع للنفس الزكية، وقد شارك في سائر الحملات الثورية ضد العباسيين، وبعد معركة (فخ) هرب (إدريس) حتى أتى (مصر) سنة (١٧٢هـ - ٧٨٨م)، ثم اتجه منها الى بلاد المغرب الأقصى، حيث التفّ حوله البربر من قبيلة (أوْربة) أو (أروبة) ولقي منهم العون والتأييد في سبيل تأسيس دولة الأدارسة، التي كانت أول دولة مستقلة، عملت جهدها على نشر الاسلام في ربوع المغرب الاسلامي.

وما لبثت دعوة إدريس بن عبد الله أن لاقت تأييداً أوسع بين صفوف قبائل البربر، فوفدت عليه قبائل (زناتة) و (زواغة) و (مكناسة) ودخلوا في طاعته، فقويت شوكته، وامتدت رقعة بلاده حتى شملت الأراضي التي تقيم فيها قبائل (زناتة) وغيرها، من القبائل المنتشرة من القيروان امتداداً الى المحيط الأطلسي.

ولقد خشي هارون الرشيد تفاقم خطر إدريس العلوي، ومحبة الناس له، وبخاصة بعدما علم بنواياه في غزو بلاد المغرب لسلخها من السلطة العباسية، فعمل على التخلص منه، وفكر في توجيه جيش كثيف لقتال إدريس بن عبد الله، غير أنه عدل عن هذه الفكرة نظراً لبُعد الشقة بين عاصمة الخلافة موقع الثورة

الادريسية، ثم أشار عليه (يحيى البرمكي) بأن يبعث اليه برجل معروف بالدهاء، يحتال لاغتياله .

واختار الرشيد لهذه المهمة رجلاً يسمى سليمان بن جرير، ويعرف بالشماخ، وكان من موالي (المهدي) العباسي. وزوده الرشيد بكتاب الى واليه على إفريقية (إبراهيم بن الأغلب) ، فأذن له هذا الوالي ياجتياز حدود ولايته، والمسير الى مقر إدريس بن عبد الله في المغرب الأقصى، حيث التقى به الشماخ، وقدّم نفسه له على أنه عالم بالطب والمداواة، وتظاهر له بالتشيع لآل البيت فأكرمه إدريس وقربه من مجلسه، وما كان إدريس بن عبد الله يدري أن نهايته ستكون على يد هذا المتطبب المتظاهر بالتشيع لآل البيت .

* * *

- ٣ -

نهاية إدريس بن عبد الله:

قال ولي الدين بن خلدون في تاريخه «العِبَر وديوان المبتدأ والخبر..»:

.. وأما إدريس بن عبد الله، ففر ولحق بمصر وعلى بريدها يومئذ (واضح) مولى صالح ابن المنصور، ويعرف بالمسكين. وكان (واضح) يركن الى شيعة آل البيت، فلما علم

بأمر إدريس، أتاه في الموضع الذي كان به مستخفياً، ولم يرَ شيئاً أخلصَ له من أن يحمله على البريد الى المغرب، ففعل، ولحق إدريس بالمغرب الأقصى هو ومولاه (راشد) ونزل بولية سنة اثنين وسبعين ومائة، وبها يومئذ اسحق بن محمد بن عبد الحميد أمير (أوروبة) وكبيرهم لعهده، فأجاره وجمع البربر على القيام بدعوته، وكشف القناع في ذلك، واجتمعت عليه قبائل (زواغة) و (لواتة) و (سدراته) و (غياثة) و (نفرة) و (مكناسة) و (غمارة) وكافة البربر بالمغرب، فبايعوه وقاموا بأمره.

وخطب إدريس في الناس يوم بويع فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه:

« لا تمدن الأعناق الى غيرنا؛ فإنَّ الذي عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا » . . .

ولحق به الى المغرب من إخوته (سليمان ابن عبد الله) ونزل بأرض (زناتة) من « تلمسان » ونواحيها. ولما استوثق امر إدريس وتمت دعوته زحف الى البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية، مثل (قندلاوة) و (بهلوانة) و (مديونة)، فقاتلهم وفتح مدناً كثيرة من مدنهم، وكان أكثرهم على دين اليهودية والنصرانية فأسلموا على يديه طوعاً وكرهاً، وهدم معاقلهم وحصونهم، ثم زحف الى تلمسان وبها من قبائل (بني يعرب) و (مغراوة) سنة ثلاث وسبعين ومائة، ولقيه أميرها محمد بن حرز، فأعطاه الطاعة، وبذل له إدريس الأمان ولسائر قبيلة (زناتة) البربرية. فأمكنه ابن حرز من قياد البلد، فبنى بها

مسجداً، وأمر بعمل منبره، وكتب اسمه فيه حسبما هو مخطوط لهذا العهد ـ عهد إبن خلدون ـ ثم رجع الى مدينة (وليلي) .

وهناك دسّ اليه الرشيد مولى من موالي المهدي اسمه سليمان بن جرير، يعرف بالشمّاخ، أنفذه بكتاب الى واليه على إفريقية (ابراهيم .بن الأغلب)، فأجازه ابراهيم، فلحِقَ سليمان بن جرير بإدريس، مظهراً النزوع اليه فيمن نزع من وحران المغرب، متبرئاً من العباسية، منتحلاً شخصية المتطبب.

يقول الدكتور حسن إبراهيم في (تاريخ الاسلام) نقلاً عن الطبري:

وأكرم إدريس الشمّاخ ، وقرَّبهُ إليه، واختصّه، ثم تحيّن الشمّاخ فرصة لقتل إدريس بن عبد الله، وقد قيل: إنه دسّ له

السمّ في قارورة ملأى بالطيب. وقيل: إنه دسّه في سواك قدّمه إليه، وكان إدريس يشكو من ألم في أسنانه ولثته. وقيل إنه قدّم له عنباً مسموماً.

وعندما تحقّق الشماخ من الغرض الذي أتى من أجله هرب وقدِم على ابراهيم بن الأغلب، فأخبره بما فعل. وجاءته بعد مقدمـهِ الأخبار بموت إدريس، فكتب ابراهيم بن الأغلب الى الرشيد بـذلك، فـولّى الشماخ بـريـد مصـر وأخبارها.

قال ابن خلدون في « العبر »:

ودُفن إدريس بن عبد الله في (وليلي » سنة خمس وسبعين ومائة، وفرّ الشماخ فلحِقَهُ فيما زعموا (راشد) مولى إدريس، فأدركه بوادي (ملوية) فاقتتلا هناك فقطع راشد يد الشماخ.

ورجع راشد مولى إدريس الى قبائل البربر

فجعل دعوة إدريس في ابنه إدريس الأصغر، وكان إدريس بن عبد الله قد ترك جارية يقال لها (كنزة) حملت منه فانتظروا حتى انجبت فسموا المولود إدريس الأصغر، فبايعوه منذ ولادته، وكان (راشد) هو القائم بالأمر الى أن شبّ إدريس بن إدريس وبلغ إحدى عشرة سنة، فبايعوه في جامع (وليلي) سنة ثمان وثمانين ومائة (١٨٨هـ - ٨٠٣ م) .

قال ابن خلدون؛ وكان ابراهيم بن الأغلب قد اغرى قبائل البربر ودس اليهم الأموال واستمالهم حتى قتلوا (راشداً)، سنة ست وثمانين ومائة، ثم قام بكفالة إدريس الثاني من بعده (أبو خالد يزيد بن الياس العبري) ولم يزل كذلك الى أن بايعوا لإدريس الأصغر سنة (١٨٨هـ) .

* * *

الفصل الثاني

دولة الأدارسة

- ١ -

لعل أكبر خطأ جنته يد الخلافة العباسية، أنهم تنكروا لمن واكبَ ثورتهم، بل لمن حملوا رايات الثورة باسمهم وتحت شعاراتهم، ومن أجل ذلك فقد كثرت الثورات على الخلافة العباسية، حتى عمت أطراف العالم الاسلامي.

وفي العصر العباسي غدت ولاية

(إفريقيه) ملجأ الهاربين من الدولة والناقمين عليها، وذلك لبعدها عن مركز السلطة وعاصمة الخلافة، وقد لجأت اليها أولاً المعارضة الأموية، التي زحفت منها الى الأندلس، لتقيم دولة أموية جديدة كانت منبع الحضارة الأوروبية الحديثة من بعد، كما لجأت اليها المعارضة الخارجية، والعلوية.

وبينما كان نشاط المعارضة الأموية ينشط في إقامة الدولة الأموية في الأندلس، نشطت المعارضة الخارجية والعلوية في أوساط قبائل البربر، الذين كانوا بدورهم ناقمين على السلاطين، نزاعين الى الاستقلال.

ولا بد من الاشارة هنا الى أن معارضة البربر حينئذ كانت ذات إطار إسلامي خالص، لأنها كانت تستهدف بصورة مباشرة الثورة على

استبداد الحكام وفداحة الضرائب العباسية، وتتجلى هذه الصورة في انتفاضة البربر على عهد المنصور وقتلهم عامله على القيروان (عمر بن حفص) ، وسيطرتهم على المدينة.

ورغم استرداد العباسيين مدينة القيروان بعد ذلك، وإنزالهم الهزيمة بالبربر إلا أن سيادتهم لم تكن كاملة شاملة في الولاية الافريقية، فما لبث خوارج البربر من الاباضية أن استقلوا بولاية (تاهرت) في وسط المغرب بزعامة (عبد الرحمن بن رستم)، حيث أقاموا ما عُرِف بالدولة الاباضية، أو (الرستمية) نسبة الى مؤسسها.

وقد اختار إدريس المغرب للثورة ولتأسيس الدولة الادريسية، لبعد هذه البلاد عن قبضة السلطة العباسية، أو ضعفها فيها.

وهكذا نشأت دولة علوية في أقاصي

المغرب.. رغم المحاولات العباسية الكثيرة لإجهاضها وتفشيلها، وازدهرت الدولة الادريسية، ومارست بنشاط دورها السياسي والحضاري في بلاد المغرب، حتى أصابها الانحلال حين تعاقب عليها في أواخر عهدها عدد من الأمراء الضعاف الذين كانت تعوزهم قوة الشخصية، والقدرة على تحمل المسؤولية، مما أدى في النهاية الى انهيار الحكم في الداخل، واشتداد الأخطار الخارجية، لا سيما من جانب الفاطميين الذين تمكنوا أخيراً بزعامة (عبيد الله المهدي) من دخول (فاس) حاضرة الأدارسة، والقضاء على دولتهم التي ظلت قائمة في تلك البلاد نحواً من قرنين من الزمن.

ولنستعرض الآن بإيجاز تاريخ الدولة الادريسية بعد أميرها ومؤسسها الأول...

الأمـــير الــثــائــر (إدريس بــن عــبــد الله العلوي) . . .

* * *

- ٢ -

ولاية إدريس بن إدريس - أو إدريس الثاني (١٧٧ - ٢١٣هـ):

إذا كان إدريس بن عبد الله رائد الثورة الادريسية، فإن ابنه إدريس الثاني يُعدّ بحق المؤسس الفعلي لدولة الادارسة في المغرب.

قال ابن خلدون: قامت قبائل البربر بأمر إدريس الثاني، وجرّدوا لأنفسهم رسوم الملك

بتجديد طاعته، واقتحموا بلاد المغرب كلها حتى استوثق لهم بها، ثم إن إدريس الثاني استوزر (مصعب بن عيسى الأزدي) المعروف (بالملجّوم)، ونزع اليه كثير من قبائل العرب والأندلس حتى اجتمع اليه منهم زهاء خمسائة، فاختصهم دون البربر، وكانوا بطانة وحاشية، واستفحل بهم سلطانه.

قال: ثم كثرت حاشية الدولة وانصارها وضاقت (وليلي) بهم، ففكر إدريس ببناء مدينة تكون حاضرة دولته، فشرع سنة (١٩٢ هـ ـ ٨٠٧ م) ببناء مدينة (فاس)، وكان موضعها لبني بوغش وبني الخير من قبيلة (وزاغة) البربرية، وكان في (بني بوغش) مجوس ويهود ونصارى، وكان إدريس يدعوهم الى الاسلام، فأسلموا كلهم على يده، ومن ثم

جاء الى موضع (فاس) وشرع في بنائها، وقد فرغوا بعد عام من بنائها، وبناء جامع الشرفاء فيها، فانتقل إدريس اليها، واستقام له أمر الخلافة، وأمر القائمين بدعوته.

ثم خرج إدريس غازياً (المصامدة) سنة (١٩٧ هـ ٨١٢ م) فافتتح بلادهم ودانوا له، وأقروا بدعوته، ثم غزا (تلمسان) وجدّد بناء مسجدها وإصلاح منبرها، وأقام بها ثلاث سنين، وكان نشيطاً في محاربة الخوارج من (الصفرية).

وذكر ابن الأثير في (الكامل) أن ابراهيم بن الأغلب أراد قتال إدريس الثاني، فنهاه أصحابه وقالوا له: اتركه ما تركك، فكتب اليه إدريس يذكر له قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكفّ عنه.

وتوفي إدريس الثاني في جمادى الآخرة سنة (٢١٣ هـ - ٨٢٨ م) وهو في السادسة والثلاثين من عمره، فخلفه ابنه محمد بن إدريس، وفي عهده انقسم امراء هذا البيت على أنفسهم، بعدما فرّق البلاد على إخوته كما يذكر (إبن عِذاري (المراكشي - في البيان المغرب).

* * *

ولاية علي بن عمر بن إدريس الثاني ومن بعده حتى (٢٩٢ هـ - ٩٣٤ م):

لما توفي إدريس الثاني خلفه ابنه محمد، لكنه لم يلبث أن توفي في السنة نفسها، فخلفه ابنه عليّ بن محمد، وكان في التاسعة من عمره، ولقّب (حيدرةٌ) على لقب أمير المؤمنين علي بن ابي طالب. ولم يحدث في عهد (علي بن محمد) ما يستحق الذكر حتى توفي في شهرَ رجب سنة

(٢٣٤ هـ - ٨٤٩ م)، فخلفه أخوه يحيى بن محمد الذي امتد سلطانه وعظمت دولته، وفي عهده تكامل عمران (فاس) حتى بنيت بها الفنادق والحمامات، ورحل اليها الناس من البلاد المغربية.

ولما توفي علي بن محمد خلفَهُ ابنه يحيى بن محمد بن إدريس، وكان سيء السيرة، فثارت عليه العامة، فاختفى بعُدوة الأندلس (أرض مرتفعة على ساحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي من الأندلس ، ويقابلها عدوة المغرب)، ومات يحيى من ليلته، واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل، الذي تزعم الثورة عليه، على مدينة (فاس)، فكتبت زوجة (يحيى) الى أبيها (علي بن عمر بن ادريس) وطلبت اليه الحضور لإخماد ثورة ابن أبي سهل ، فجاء الى

فاس، واستولى عليها.

ولم يلبث أهل (فاس) أن دخلوا في طاعة (علي بن عمر بن إدريس)، وخُطب له على المنابر، واستقرت قدمه في المغرب فترة من الزمن، حتى ثار عليه عبد الرزاق الصفري، أحد الخوارج الصفرية، وتبعه أهالي البلاد القريبة من مدينة فاس التي دخلها ففرَّ علي بن عمر الى قبائل (أوروبة) البربرية.

ولكن فريقاً من أهل (فاس) بعثوا الى يحيى بن القاسم بن إدريس المعروف بيحيى الثالث، ويلقب بالعوّام، يطلبون منه الحضور الى بلدهم، ولما وصل اليهم بايعوه على الطاعة، ثم تفرغ لحرب عبد الرزاق الصفري، وأرغمه على الخروج من عُدوة الأندلس، فدخلها يحيى وبايعه أهلها وجميع

من نزل بها من أهل الأندلس ، وكانت بين يحيى الثالث وبين الخوارج الصفرية وقائع كثيرة ، وظل يحيى الثالث أميراً على (فاس) وما يليها من بلاد المغرب الأقصى الى أن قتله الربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ .

* * *

يحيى الرابع بن إدريس بن عمر بن إدريس (٢٩٢ هـ ٣١٠ م):

بايع أهل فاس بعد يحيى الثالث بالولاية ليحيى الرابع، وامتد ملكه على جميع بلاد المغرب الأقصى، وقد كان يحيى الرابع - كما يقول السلاوي في كتاب: الاستقصا ؛ « واسطة عقد البيت الادريسي! أعلاهم قدراً، وأبعدهم ذكراً، وأكثرهم عدلاً، وأغزرهم

فضلاً، وأوسعهم ملكاً، وكـان فقيهاً حـافظاً للحديث، ذا فصاحـة وبيان، بـطلاً شجاعـاً حازماً، ذا صلاحٍ ودين وورع».

ولم يبلغ أحد من الأدارسة ما بلغه يحيى الرابع في سعة ملكه وبسطة سلطانه، حتى ظهر الفاطميون في إفريقيا في أواخر القرن الثالث الهجري، ثم مدّوا نفوذهم على بـلاد المغرب الأقصى، في عهد عبيد الله المهدي وخلفائه من بعده كما يذكر ابن خلدون.

غزا جيش المهدي الفاطمي بلاد المغرب بقيادة (مصالة بن حبوس) ، وفتح تاهرت ثم التقى بيحيى الرابع، بالقرب من (مكناسة) وأحلَّ به الهزيمة، ثم حاصر مدينة (فاس)، واضطر يحيى الى الصلح، على أن يؤدي اليه بعض الأموال، ويبايع للمهدي الفاطمي. وولّى

مصالة يحيى الرابع مدينة (فاس)، كما ولّى موسى بن ابي العافية ـ وهو ابن عم مصالة ـ سائر بلاد المغرب الأقصى لمساعدته اياه على غزو هذه البلاد..

وبذلك امتد سلطان الفاطميين الى بلاد الأدارسة، وقد بدأ ذلك منذ سنة (٣٠٠هـ ـ ٩١٢م)، وعندما عاد (مصالة) الى (فاس) سنة (٣٠٩ هـ ـ ٩٢١ م)، استطاع موسى بن أبي العافية أن يوغر صدره على يحيى الرابع، فقبض عليه، واستصفى أمواله ثم نفاه، فأقام عند بني عمه ببلاد الريف، فتصدى له (موسى) وحبسه، ثم أطلقه بعد عشرين سنة، فقصد إفريقيه، ومات في مدينة المهدية سنة (٣٣٢ هـ ـ ٩٤٣ م).

* * *

- ٣ -

نهاية الأدارسة :

عندما قبض (مصالة) على يحيى الرابع ، ولّى مكانه (ريحان المكناس) على فاس ، ولكن ولايته لم تطُل ، حيث ثار عليه الحسين بن محمد ابن القاسم الادريسي ، المعروف بالحجام سنة (٣١٠ هـ - ٩٢٢ م) ، واستولى على (فاس) وقتل (ريحان المكناسي) ، فبايعه الناس ودخلوا في طاعته ، ثم مدّ نفوذه الى ما جاوره من

البلاد، وتفرغ لقتال (موسى بن ابي العافية)، ودارت بينهما عدة معارك، قتل في احداها ولد موسى ومات الحسن بن محمد في سنة (٣١٢ هـ - ٩٢٤ م)، واستولى موسى على ملك الأدارسة ببلاد المغرب، فشايع الفاطميين بأفريقية، ولكن دولة الأدارسة التي كادت تزول على يد موسى بن أبي العافية من ناحية، وعلى أيدي الفاطميين من ناحية اخرى، تحولت الى بلاد الريف، بينما استقرّ الأمر لموسى في المغربين الأقصى والأوسط.

ولم تتمتع دولة الأدارسة بالاستقلال في بلاد الريف، حيث طردهم موسى بن أبي العافية من جديد، واستأثر بالنفوذ في المغربين الأقصى والأوسط، وخلع طاعة الفاطميين، وانحاز الى عبد الرحمن الناصر في الأندلس، فكان

الفاطميون يرسلون الى موسى القائد تلو القائد لقتاله، وكان آخرهم (ميسور الخصي) الذي طارد موسى الى الصحراء، وانتقلت السلطة في بلاد المغرب الى القاسم وابراهيم أخويّ الحسن بن محمد الادريسي آخر أمراء الأدارسة بفاس، وبايع اهالي هذه البلاد القاسم بن الحسن بن محمد... الذي استطاع ان يستعيد أكثر بلاد المغرب، عدا (فاس)، واتخذ قلعة (حجر النسر) مقراً لإمارته، وأخذ في نشر الدعوة الشيعية، حتى توفي سنة (٣٣٧ هـ - ٩٤٨ م)، فخلفه ابنه (أبو العيش؛ أحمد بن القاسم) وكان كما وصفه السلاوي؛ فقيهاً ورعاً حافظاً للسير، عارفاً بأخبار الملوك وأيام الناس، وأنساب قبائل العرب والبربر، شجاعاً جواداً، وكان يعرف في

بني إدريس بأحمد الفاضل.

غير أن أبا العيش لم يلبث أن دعا الى الأمويين بالأندلس، وقطع دعوة الفاطميين، وانتشر نفوذه في بلاد المغرب الأقصى كافة الى (سجلماسة)، ثم طمع عبد الرحمن الأموي الثالث في امتلاك (طنجة) من أبي العيش، ليضمها الى (سبتة)، التي كان قد استولى عليها من قبل، فأبى أبو العيش، ولكنه اضطر بعد ذلك الى الإذعان، بعدما أرسل اليه الخليفة الأموي جيشاً وأسطولاً حاصراهُ، وضيّقا عليه، وزاد نفوذ الأمويين ببلاد المغرب الأقصى حتى مات أبو العيش سنة (٣٤٨ هـ - ٩٥٩ م).

وخلف أبا العيش أخوه (أبو القاسم)، وكان هو آخر أمراء الأدارسة في المغرب الأقصى، وفي عهده زالت كل آثار الدولة

الادريسية على يد الفاطميين.

وقد امتد حكم الأدارسة ببلاد المغرب نحو قرنين، لم تتمتع خلالهما بشيء من الاستقرار الذي يمكن القائمين على الحكم من توجيه جهودهم الى نشر العلوم والفنون، والأخذ بأسباب الحضارة.

ولقد قامت دولة الأدارسة بدور هام في نشر دعوة الاسلام في ربوع المغرب، وبخاصة في أوساط القبائل البربرية، وربما كان لانتسابهم الى الرسول صلى الله عليه وسلم أثر في توحيد القبائل المتعادية، وكسب تأييد الأهلين في المغرب، بعد أن كادت فتن الخوارج تمزق شملهم.

* * *

إقـرأ

في الحلقة التالية

الرحّالة

محمد بن جبير

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر
هاتف: ٢٧٣٦٣٦-٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧-ص.ب: ٥٠١٥٠/١٣ بيروت - لبنان

الرحالة

محمد بن جبير

أعلام من المغرب والأندلس
٣

الرحالة
محمد بن جبير

تأليف
سيف الدين الكاتب

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦ - ٢٧٥٥٣٢ - ٢٧٥٥٦٣ - ٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ١٥٠٢٥/١٣ بيروت - لبنان

الفصل الأول

الحياة الثقافية في عصر ابن جبير

- ١ -

نشطت الثورات في العصر العباسي ، وقامت كثير من الدول المستقلة في أطراف العالم الاسلامي ، فكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة الفكرية ، وراجت الثقافة ، وزخرت بلاطات هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم . . . ومن ثم نرى أصداء هذه النهضة الثقافية في بلاط كل من الغزنويين في الشرق ، والفاطميين والأيوبيين في

مصر، والأمويين ثم المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس.

وانتشرت مراكز الثقافة في الأقاليم الاسلامية، والذي يهمنا من ذلك في معرض بحثنا هنا أن (قرطبة) كانت آنذاك إحدى عواصم الاسلام الكبرى، حتى نافست بغداد والقاهرة وبخارى وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الاسلامية، وصارت سوقاً للعلم وكعبة لرجال الأدب، حتى جذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا اليها للتزود من معين الثقافة الاسلامية.

كان المسجد أعظم معاهد الثقافة، حيث يدرس فيه القرآن والحديث والفقه، واللغة والتاريخ، وغيرها من العلوم. وأصبح كثير من مساجد العالم الاسلامي مراكز هامة للحركة العلمية والثقافية. ومن اهم المساجد التي كانت

مراكز إشعاع ديني وثقافي وعلمي في تلك الحقبة: المسجد النبوي الشريف، وجامع عمرو بن العاص، ومسجد ابن طولون، والجامع الأزهر، وجامع القرويين، ومساجد قرطبة التي جذبت اليها اعيان الفكر والثقافة، ومن ثم ظهرت فيها طائفة من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين وغيرهم.

تبع ذلك كله نشاط في إقامة المكتبات، وظهر كثير من الورّاقين، واتخذ العلماء والأدباء أماكن يجتمعون فيها للتزود من العلم، فكثرت المكتبات التي تزخر بالكتب الدينية والعلمية، وأصبحت هذه المكتبات فيما بعد من أهم مراكز الثقافة الاسلامية. وكانت قرطبة منذ عهد الأمويين في الأندلس تضم في خزائنها مئات آلاف الكتب. وقد انتقل اليها كثير من التراث اليوناني والفارسي، وكان الأمويون فيها

يبذلون أقصى الجهود في توجيه الدراسات الأندلسية في ميادين العلوم المختلفة.

وربما قلّد بعض الأشراف الأندلسيين خلفاءهم في إنشاء مكتبات خاصة كانوا يجهدون أن يجمعوا فيها الكتب التي يستطيعون العثور عليها، ولو كلفتهم أبهظ الأثمان.

ومن أعظم المكتبات الخاصة في الأندلس كانت المكتبة التي أنشأها المنصور الحاجب، ولكنها كانت تزخر بالكتب الفلسفية، لشدة حبه للفلسفة وعلم الكلام. ويحدّثنا المؤرخون أن المنصور الحاجب ما لبث أن أحرق كثيراً من كتب مكتبته. وإنما هو أراد بذلك أن يحول دون تفاقم سخط علماء المسلمين المالكية، الذين كانوا على مذهب السلف في كره الفلسفة، وعدّ الفلسفة خطراً يهدد العقيدة والدين.

وقد ظل نفوذ المالكية قوياً، وبغضهم للفلسفة شديداً حتى عهد المرابطين فقد حملوا السلطان علي ابن يوسف بن تاشفين على إحراق كتاب «إحياء علوم الدين» للامام الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥هـ - ١١١١م) زعماً منهم أنه من صميم الفلسفة وعلم الكلام، وأنه خطر على الدين. وربما كان هذا العمل السيء من العوامل الأساسية التي تذرع بها المهدي بن تومرت صاحب دولة الموحدين في حرب الدولة المرابطية، ورميها بالجمود، لسيرها على مذهب السلف الصالح في العقيدة والسلوك.

وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على قوة نفوذ علماء المالكية، وتحكمهم في المجال السياسي في ذلك العصر، الذي كان للدين فيه شأن كبير في العالم أجمع وربما جاء إقرار المذهب المالكي في المغرب والأندلس رداً على إقرار العباسيين في

المشرق مذهب أبي حنيفة النعمان.

وفي القرن الخامس الهجري عاصر المرابطون ظهور كبار الفقهاء، كأبي عمران الفاسي، وعبد الله بن ياسين، والقاضي عياض... وكلهم من المغاربة الذين تلقوا العلم ببلاد الأندلس. وعبد الله ابن ياسين هو مؤسس أول مدرسة للفقه المالكي في (نفيس) على مقربة من (أغمات) . وكان مذهب مالك يتناسب وبساطة المرابطين الصحراوية الذين كانوا ينظرون الى علماء المدينة باعتبارهم رمز الاسلام، ورسل المحبة والصفاء، ولا يخفى أن الامام مالك بن أنس كان إمام اهل المدينة .

ومما يدل على قوة نفوذ الفقهاء في الدولة المرابطية، ما كان يتمتع به (عبد الله بن ياسين) من نفوذ؛ حتى أن أمراء المرابطين كانوا بعد موته لا يبرمون أمراً من أمور دولتهم دون استشارة الفقهاء .

ولقد ظل المغرب والأندلس على ذلك الى أن ظهر المهدي بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية، الذي تحدى المرابطين ورماهم بالشرك لأنهم يتمسكون بظاهر الآيات المتشابهات ولا يؤولونها كما يؤولها المعتزلة ومن تبعهم من أهل الفلسفة والكلام.

وقد عاد الى الأندلس والمغرب نشاطها العلمي الواسع في عهد الموحدين، وكانت بلاطات أمرائهم منتدى العلماء والأدباء والشعراء، وكانت مدينة (مراكش) من أهم مراكز الثقافة الاسلامية في العلوم والآداب والفنون، تماماً كما كانت تتطلع اليها أنظار المسلمين للدفاع عن حوزة الاسلام ضد مطامع النصارى في بلاد الأندلس.

* * *

الأسماء اللماعة، التي كانت من أعمدة الحضارة الاسلامية.

ففي العلوم النقلية شهد عصر ابن جبير ظهور أمثال: ابن خلف وابن العريف الأندلسيين - في القراءات - والزمخشري وابن عطية والقرطبي - في التفسير - والحافظ السلفي وابن منده والبغوي - في الحديث - ، وأبي البركات الأنباري وأبي نزار البغدادي والجواليقي وأبي البقاء العكبري - في النحو - وأبي طالب المعافري وابن مالك - في اللغة - ونصر بن عبد الرحمن والبهاء زهير - في الشعر - والحريري والقاضي وابن عطية والفتح بن خاقان - في النثر.

وفي مجال العلوم العقلية شهد عصر ابن جبير ظهور أمثال: ضياء الدين الأندلسي وابن النفيس وابن رشد - في الطب - وابن رشد ومحي الدين بن

عربي ـ في الفلسفة ـ والقاضي بهاء الدين بن شداد وابن خلكان وأسامة بن منقذ والسَمعاني وابن الجوزي ـ في التاريخ ـ

وهـذا غيض من فيض أعـلام الحضـارة الاسلامية الذين ظهروا في عصر ابن جبير أو قبيله أو بُعَيْده. وذلك يعطينا صورة جلية لرقي الحياة العلمية والفكرية والثقافية التي فتح ابن جبير عينيه عليها.

وقد كان كثير من هؤلاء الاعلام مشاركاً في كثير من العلوم، وكان هذا شائعاً معروفاً في سلف الأمة من العلماء والى عهد قريب، حيث ظهر التخصص في العلوم مؤخراً.

بقي أن نشير الى ظهور علم (الجغرافيا والرحلات) منذ القرن الهجري الثالث، وان كان ظهوره جلياً لم يكن الا في العصر العباسي الثاني.

- ٢ -

الجغرافية قبل ابن جبير وبعده

كان مولد ابن جبير سنة (**٥٣٩ أو ٥٤٠ هـ**) يوافق سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين، ومن هنا فقد ظهر ابن جبير في عصر زخر بالعلم والعلماء، ليس في مجـال العلوم النقلية.

فحسب، بل وفي مجال العلوم العقلية كذلك، وقد شهد عصر ابن جبير ظهور عشرات... بل مئات

(٤٤٧ ـ ٦٥٦هـ ـ ١٠٥٥ ـ ١٢٥٨م). وكان من أسباب ظهور هذا العلم في أوائله؛ اتساع نطاق التجارة في العصر العباسي الأول، واتصال مدينة بغداد حاضرة العباسيين براً وبحراً بالبلدان القاصية، ثم لتعبيد الطرق وأمنها، مما سهل الأسفار، ومهّد السبل أمام الكاشفين والرحالين. فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة، ووضعوا في وصفها الكتب والأسفار، ووصفوا ما شهدوه في البلدان التي ارتحلوا اليها وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة، وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة هي خلاصة مشاهداتهم وتجاربهم التي اكتسبوها من أسفارهم وتطوافهم في كثير من الأقاليم والممالك والبلدان .

ولقد وصلت رحلات المسلمين في عهد هارون الرشيد الى الهند وسيلان والصين، ويقال: إنهم

وصلوا بحراً الى كوبا، كما كان للفتوح الاسلامية في أواسط آسيا، وفي بلاد الهند شرقاً، وغرباً في شمال إفريقية واوربا، أثر كبير في اتساع أفق التفكير الاسلامي عن أحوال هذه البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ولكن الذي يسترعي النظر أن هذه الثروة الجغرافية لم تظهر ظهوراً جلياً - كماقدّمنا - إلا في العصر العباسي الثاني، أما في العصر العباسي الأول (١٣٢ هـ-٤٤٧هـ ٧٤٩ - ١٠٥٥م) فقد ظهر ابن خرداذبة الجغرافي الفارسي الأصل، الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وخلف كتابه (المسالك والممالك)، وهو من أقدم الكتب الجغرافية التي ظهرت في اللغة العربية، وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون في الاهتداء الى الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة عند

(الأبلة)، ويصل الى الهند والصين.

فإذا طالعنا العصر العباسي الثاني ، ألفينا أنه يشهد ظهور كثير من الجغرافيين والرحالين، ومن أشهرهم:

١ ـ شمس الدين أبو عبد الله المعروف بالبشاري المقدسي المتوفى سنة (٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م) صاحب كتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » طبع في ليدن عام ١٨٧٧م بإشراف (دي غوييه) .

٢ ـ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني المتوفى سنة (٤٤٠هـ ـ ١٠٤٨ م) صاحب كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية ». طبع في ليبزج عام ١٨٧٨م.

٣ ـ ناصر خسرو المتوفى سنة (٤٨١هـ ـ ١٠٩٤ م) صاحب (سفرنامة). أو

« زاد المسافر »، وهو مؤلف باللغة الفارسية.

٤ ـ أبو عبيد البكري؛ محمد بن عبد العزيز المتوفى سنة (٤٨٧هـ ١٠٩٤م) صاحب كتاب « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب »، وهو جزء من كتابه الكبير المعروف باسم « كتاب المسالك والممالك». وقد طبع في المغرب في باريس سنة ١٩١١م.

٥ ـ شهاب الدين أبو عبد الله المعروف بياقوت الحموي، المتوفى سنة (٦٢٦هـ ١٢٢٩م) صاحب كتاب « معجم البلدان »، وهو مشهور طبع مراراً.

٦ ـ عبد اللطيف موفق الدين الطبيب البغدادي المتوفى سنة (٦٢٩هـ ١٢٣١م) وله كتابان في تاريخ مصر وجغرافيتها.

٧ ـ زكريا بن محمد بن محمود القزويني المتوفى

سنة (٦٨٢هـ-١٢٨٣م) صاحب كتاب «آثار البلاد وأخبار العباد» وهو مطبوع متداول.

٨ - محمد بن عبد العزيز المعروف بالشريف الأدريسي المتوفى سنة (٦٤٩ هـ-١٢٥١م) صاحب كتاب «نزهة المشتاق» الذي وصف فيه رحلاته الى إفريقيه الشمالية، ومصر والحجاز وآسيا الصغرى وبلاد اليونان. وفي هذا الكتاب رسم الادريسي خريطة العالم. وقد طبع الكتاب اول مرة في روما سنة ١٥٩٢م. وقد طبع ميللر خريطة الادريسي طبعة أنيقة مزينة بالألوان عام ١٩٢٦م.

على أن لنا أن نشير أخيراً بأنّ أيّاً من كتب هؤلاء العلماء الاعلام جميعاً لم يحظَ بما حظيت به (رحلة ابن جبير)، الذي يُعَدّ واسطة عقد هؤلاء الجغرافيين المسلمين، إذ أنه ولد سنة

(٥٣٩ أو ٥٤٠ هـ) في بلدة (بلنسية) بالأندلس، ثم استوطن (غرناطة)، وتلقى العلم على أبيه وعلى (ابن أبي العيش) وعلى كثير من علماء عصره. وأفاد من علمه كثير من علماء المغرب والمشرق. ولعل هذا يغرينا بمتابعة خيوط سيرة هذا العلم الفذّ من أعلام حضارتنا وتاريخنا.



الفصل الثاني

- ١ -

ترجمة ابن جبير وحياته

قال المقّريُّ في (نفح الطيب) في ترجمة ابن جبير :

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكناني الواصل إلى الأندلس ، دخل جده عبد السلام الأندلس في طالعة (بلج بن بشر بن عياض القشيري)

في محرّم سنة (١٢٣ هـ - ٧٤٠ م)، وهو من ولد حمزة بن كنانة بن بكر بن عبد بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس.

بلَنسيُّ الأصل، ثم غرناطي الاستئصال، شرّق وغرّب وعاد إلى غرناطة. كان أديباً شاعراً مجيداً سنّياً فاضلاً نزيه الهمة سريّ النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة، كتب بـ (سُبتة) عن أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن، وبغرناطة عن غيره من ذوي قرابته. ثم نزع عن ذلك وتوجه إلى المشرق وجرت بينه وبين أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته، ونظمه فائق، ونثره بديع، وكلامه المرسل سهل حسن، وأغراضه جليلة، ومحاسنه ضخمة، وذكره شهير ورحلته نسيجة وحدها، طارت كل مطار رحمه الله.

قال من عُني بخبره : رحل ثلاثاً من الأندلس إلى الشرق، وحجّ في كل واحدة منها.

فصَلَ [خارجاً] عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس لثمانٍ خلون من شوال سنة (٥٧٨ هـ ـ ١١٨٣ م)، ثم عاد إلى وطنه غرناطة، لثمانٍ بقينَ من محرّم عام (٥٨١ هـ ـ ١١٨٥ م)، وصنف الرحلة المشهورة، وذكر ما نقل فيها من العلم ، وما شاهده من عجائب البلدان وبدائع الصنائع، وهو كتاب مؤنس ممتع، مثير سواكن الأنفس إلى تلك المعالم.

ولما شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، قوي عزم ابن جبير على القيام برحلته الثانية، فتحرّكَ إليها من غرناطة لتسعٍ خلون من ربيع الأول سنة (٥٨٥ هـ ـ ١١٨٩ م)، ثم

رجع إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة (٥٨٧ هـ ـ ١١٩١ م)، وسكن بغرناطة، ثم بـ (مالقة) ثم بـ (سُبتة) ثم بـ (فاس)، حيث انقطع إلى إسماع الحديث، وكان تقياً ورعاً صالح الأعمال.

ثم رحل الثالثة من (سبتة) بعد موت زوجهِ عاتكة (أم المجد) بنت الوزير أبي جعفر الوقشي، وكان يحبها حباً جماً ، فعظم وجدُه عليها ، فسافر إلى مكة، وجاورَها طويلاً، ثم ببيت المقدس، ثم تحول إلى مصر، وأقام بالإسكندرية يحدّث ويُؤخذ عنه إلى أن لحق بربه .

قال لسان الدين بن الخطيب في (الإحاطة في أخبار غرناطة) في ترجمة ابن جبير :

روى بالأندلس عن أبيه ، وأبي

الحسن بن محمد بن أبي العيش، وأبي عبد الله بن أحمد بن عروس وابن الأصيلي ، وأخذ العربية عن الحجاج بن يسعون ، وبسُبتة عن أبي عبد الله بن عيسى التميمي السبتي، وأجاز له أبو إبراهيم بن إسحاق بن عبد الله بن عيسى التميمي التونسي ، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد، وأبو جعفر أحمد بن علي القرطبي الفتكي ، وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن علي بن إبراهيم البغدادي ، وصدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الخجندي رئيس الشافعية بأصبهان ، وببغداد الحافظ أبو الفرج بن الجوزي ، وبدمشق أبو الحسن أحمد بن حمزة السلمي الحواري ، وأبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون ، وأبو الطاهر الخشوعي ، وسمع عليه ، وعماد الدين

الأصبهاني وغيرهم كثير .

ومن هنا يتبين مبلغ علم ابن جبير، وما لقي من المشقة في طلبه والرحلة إلى أساطينه، وقد أخذ العلم عن محمد بن جبير خلق كثير، قال ابن عبد الملك :

أخذ عنه أبو إسحاق بن مهيب وابن الواعظ وأبو تمام بن اسماعيل ، وأبو الحسن بن نصر بن فاتح البجائي ، وأبو الحسن علي الشادي، وأبو سليمان بن حوط الله ، وأبو بكر بن محمد بن أبي الغمر ، وأبو عبد الله بن مجير ، وأبو العباس بن عبد المؤمن البناني ، وأبو محمد بن الحسن اللواتي ، وأبو محمد بن سالم وعثمان بن سفيان بن أشقر التميمي التونسي .

وممن أخذ عنه بالإسكندرية رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله السكندري ،

وبمصر رشيد الدين بن العطار، وفخر القضاة ابن الجياب وابنه جمال القضاة.

* * *

- ٢ -

آثار ابن جبير ومآثره

قال ابن عبد الملك: له نظم وقفتُ منه على مجلد على قدر ديوان (أبي تمام) حبيب بن أوس الطائي ، وجزء سماه « نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح » في رثاء زوجته (ام المجد)، وهو من أقدم ما وصلنا في رثاء الأزواج زوجاتهم .وجزء سماه « نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان »، وله ترسل بديع، وحِكَم مستجادة

وكتاب رحلته. وكان ابو الحسين الشادي يقول: إنها ليست من تصانيفه، وإنما قيدّ معاني ما تضمنته، فتولى تربيتها وتنضيد معانيها بعضُ الآخذين عنه على ما تلقاه والله أعلم. قال ابن عبد الملك: هذا غير صحيح؛ لأن نسج ابن جبير معروف، وأسلوبه العالي واحد لا تختلف فيه جملة عن جملة، وديباجة كلامه لا تخفى على أحد.

ومن أشعار ابن جبير قصيدته الشهيرة التي نظمها وقد شارف المدينة المنورة:

أقول وآنست بالليل نارا:
لعل سراج الهدى قد أنارا
وإلاّ فما بال أفق الدجى
كأن سنا البرق منه استنارا
وهذا النسيم شذا المسك قد
أعير أم المسكُ منه استعارا؟!

جرى ذكر طيبـة ما بيننـا. . .

فلا قلبَ في الركب إلاّوطارا. .

ومن أجمل ما قال فيها، وكأنه كان يستشف الغيب:

ولـو كنت لا أستطيع السبيلَ

لـطرتُ ولو لم أصـادفْ مطارا

ومن أبدع ما أنشده أول رحلته:

طـال شوقي الى بقـاء ثـلاثٍ

لا تشـد الـرحـال إلا اليهـا

إن للنفس في سـماء المعـالي

طـائـراً لا يحـوم إلا عليهـا

قُصَّ منـه الجناح فهـو مهيضُ

كل يوم يـرجو الـوقوع لـديها

ومن حكمه الشعرية المستجادة قوله في وصف

حقائق الناس:

النـاس مثل ظـروف حشوهـا صبر
وفوق أفواهها شيء من العسلِ
تغــرُّ ذائقهـا حتى إذا كشفت
له تبين مـا تحويـه من دخَلِ

ومن ظريف ما قال رحمه الله:

تغــيرّ إخـوانُ هــذا الـزمــان
وكــل صـديقٍ عــراه الخَـلَلْ
وكـانـوا قــديمـاً عــلى صحـةٍ
فقد داخلتهم حروف العِلَلْ
قضيتُ التعجب من أمــرهــم
فصرتُ أطالع باب البَدلْ!...

ومن حكمهِ الشعرية وأمثاله:

أمـا في الـدهـر معتَـبَرُ
فـفيـهِ الـصفـو والـكـدَرُ
فـسـلني عـن تـقـلُّبـهِ
فـعنـد جـهيـنَـة الخـبـرُ
صـحـبـنـاه الى أجـلٍ
نـراقـبـه ونـحـتـذرُ
فـيـا عـجـبـا لمـرتحـلٍ
ولا يـدري مـتى الـسـفَـرُ

أما نثره الذي كان يكتبه مترسلاً فيه، فإنه يُعَدّ من أجمل النثر الفني في الأدب العربي، وكان هو الآخر لا يخلو من الحكم والأمثال، ومن ذلك قول ابن جبير:

إن شرُفَ الانسانُ فبشـرفٍ وإحسان، وإن فاق فبفضلٍ وإرفاق. ينبغي أن يحفظ الانسانُ

لسانه، كما يحفظ الجفنُ إنسانه، فربّ كلمةٍ تُقال، تُحدثِ عثرةً لا تُقال. كم كست فلتات الألسنة الحداد من ورائها ملابس حِداد. نحن في زمان لا يحصِّل فيه نفاق، إلا لمن عامل بالنفاق، شغل الناس عن الطريق بزخارف الأعراض، فنسوا الصدود والاعراض، آثروا دنيا هي أضغاث أحلام، وكم هفَتْ في حبها من أحلام، وأطالوا آمالهم، وقصروا أعمالهم...

وقد كان ابن جبير رجلاً معروفاً بالصلاح والفضل والمروءة. قال صاحب الملتمس:

الفقيه الكاتب أبو الحسين بن جبير محمد لقيته وجالسته كثيراً فرأيته من أهل المروءات، عاشقاً في قضاء الحوائج والسعي في حقوق الاخوان، والمبادرة لإيناس الغرباء.

قال: ومن أغرب ما يحكى أني كنت أحرص

الناس على أن أصاهر قاضي غرناطة أبا محمد عبد المنعم بن الفرس فجعلتُ ابن جبير الواسطة حتى تيسر ذلك، فلم يوفق الله بيني وبين الزوجة، فجئته أشكو اليه ذلك فقال: أنا ما كان القصد بي في أجتماعكما، ولكن سعيت جهدي في غرضك، وها أنا أسعى أيضاً في افتراقكما لأنك تريد ذلك، وخرج في الحين ففصل في القضية، ثم إنه طرق بابي ففتحتُ له، فدخل وفي يده محفظة فيها مائة دينار، فقال: يا ابن أخي! إعلم أني كنت السبب في هذه القضية، ولم أشك أنك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذي وجدته الآن عند عمك [قاضي غرناطة]، فبالله إلاّ ما سررتني بقبوله، فقلت له: أنا ما أستحي منك في هذا الأمر، واللهِ إن أخذتُ منك هذا المالَ لأتلفنّه فيما أتلفتُ فيه مال والدي في أمور الشباب، ولا يحل لك أن تمكنني به بعد أن

شرحت لك أمري، فتبسم وقال: لقد احتلت في الخروج عن المِنّة، وانصرف بماله.

قال علي بن ظافر في « بدائع البداثة »: أنبأني المسكين قال؛ نزلت من القرافة [المقبرة] لوداع الأجلّ أبي الحسين بن جبير فقال: كنت على المجيء اليك، فقلت: وهمة سيدي هي التي أتت به، فسألني عن القرافة، فقلت هي موضع يصلح للخير والشر، من طلب شيئاً وجده. فقال: خذ هذه الحكاية:

كنُت متفرجاً في مكان، وبتّ بهِ، ثم أقبلتُ منه بكرة فلقيني تلميذ لي فقال:

من أين أقبلت يامن لا نظير له

ومن هو الشمس والدنيا له فلَكُ؟

فأجبته مسرعاً:

من موضعٍ تعجبُ النساكَ خلوتُه

وفيه ستر على الفُتّاكِ إن فتكوا

وهذا يدلك على سرعة بديهة ابن جبير وسلامة فطرته وسليقته رحمه الله. وقد أطلنا الحديث على آثاره ومآثره، على أن رحلته ـ لا ريب ـ أبرز آثاره ومصنفاته، فلنفرد الفصل التالي للحديث عنها.

* * *

الفصل الثالث

رحلة ابن جبير

إذا كان لابن جبير تحديث وفقه وعلم ، وشعر مدّون وأمثال وحِكَم ، فلا ريب أن شهرته كانت في نثره، وفي تصنيفه لرحلته التي تداولتها الأيدي ، وأطبقت على حسن بيانها أئمة البيان ، ولكنها فوق ذلك معلَمة جغرافية تاريخية نادرة ونفيسة، بما حوت من وصف دقيق لعجائب البلدان ، وغرائب المشاهد ، من تجارب الأمم وأحوال الناس. ولقد كان لابن جبير عناية في وصف المظاهر الدينية من

مشاهد ومساجد وقبور وكنائس ومعابد، ولما كان ابن جبير معاصراً للحروب الصليبية، فقد أحسن وصف حوادثها ومجرياتها، حتى خرج الكتاب جامعاً للعلوم والفنون والآداب من تراث الاسلام في حقبة زاهرة من تاريخه المشرق.

ولعل هذه النماذج التي نجتزئها لك من رحلة ابن جبير، تتيح لك تكوين صورة واضحة عن منهج هذا الرحالة السائح العظيم في الكتابة التاريخية والجغرافية، ملماً بأسباب العلوم والمعارف والفنون، مما لا يتحقق إلا لقلة من العلماء، وابن جبير من أجلتهم ـ لا ريب ـ واليك هذا المثال من أمثلة بيانه في وصف مدينة دمشق، يقول ابن جبير:

جنة المشرق، ومطلع حسنه المُشرق، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها، وعروس المدن

التي أجتليناها، قد تحلّت بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حلل سندسية من البساتين، وحلّت من موضع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصّتها أجمل تزيين، وتشرّفت بأن آوى اللهُ تعالى المسيحَ وأمه صلى الله عليهما منها الى ربوة ذات قرار ومعين، ظل ظليل، وماء سلسبيل، ورياض يُحيي النفوس نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم: هلموا الى معرس للحُسنْ ومَقيل. قد سئمت أرضها كثرة الماء، حتى اشتاقت الى الظمأ، فتكاد تناديك بها الصمُّ الصِّلاب: ﴿اركض برجلك هذا مغتسلٌ بارد وشراب﴾.. قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر، ولله صدق القائلين عنها:

إن كانت الجنة في الأرض، فدمشق لا شك فيها ، وإن كانت في السماء ، فهي بحيثُ تُسامِتُها وتُحاذيها .

وفي وصف مسجد دمشق نرى ابن جبير وكأنه يكتب بريشة رسام ماهر حيث يقول:

هو من أشهر جوامع الاسلام حسناً، وإتقان بناءٍ، وغرابةَ صنعةٍ، وإحتفال تنميقٍ وتزيين، وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه ، ومن عجيب شأنه : أنه لا تنسج العنكبوت به ، ولا تدخله، ولا تلمّ به الطير المعروفة بالخطّاف ، انتدب لبنائه الوليد ابن عبد الملك رحمه الله ، ووجه الى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بإشخاص اثني عشر الفاً من الصنّاع من بلاده، وتقدم اليه بالوعيد في ذلك إن توقّف عنه، فامتثل امره مذعناً بعد مراسلة جرت

بينها في ذلك، مما هو مذكور في كتب التواريخ، فشرع في بنائه، وبلغت الغاية في التأنق فيه، وأنزلت جُدُره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء، وخلطت بها أنواع من الأصباغ الغريبة، قد مثلت أشجاراً وفرعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة وصف كل واصف، فجاء يغشى العيون وميضاً وبصيصاً، وكان مبلغ النفقة فيه حسبما ذكره ابن المعلى الأسدي في جزء وضعه في ذكر بنائه: مائة صندوق، في كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار ومائتا الف دينار، فكان مبلغ الجميع أحد عشر الف الف دينار ومئتي الف دينار.

* * *

ومن أمثلة بيان ابن جبير المشرق قوله عن الشام:

... وكل مَنْ وفّقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يلتزم إن أحبَّ ضيعةً من الضياع، فيكون فيها طيب العيش ناعمَ البال، وينهال الخير عليه من أهل الضيعة، ويلزم الامامة او التعليم أو ماشاء، ومتى سئم المقام خرج الى ضيعةٍ اخرى، أو يصعد الى جبل لبنان، أو جبل الجودي، فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عزَّ وجلَّ، فيقيم معهم ما شاء، وينصرف الى حيث شاء.

ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين؛ جلبوا لهم القوت، وأحسنوا اليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع الى الله عزَّ وجلَّ، فتجب مشاركتهم. وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا، فيه أنواع الفواكه، وفيه المياه المطّردة والظلال الوارفة، وقلّما يخلو

لضدّ ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين من التبتيل والزهادة، وإذا كانت معاملة النصارى بعضهم مع بعض؟!

ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة، وذلك انهم يمشون امام الجنازة بقراء يقرأون القرآن بأصوات شجية وتلاحين مبكية، تكاد تنخلع لها النفوس شجواً وحناناً، يرفعون أصواتهم بها فتتلاقى الآذان بأدمع الأجفان.

وهكذا تبدو لنا رحلة ابن جبير مَعْلَمةً عربية فريدة تحيط بكل ما وقعت عليه عين هذا الرحالة ووعته ذاكرته؛ ومن ثم فهي تقدم لنا بأسلوب رائق، وعبارة مشرقة، تاريخ الحضارة الاسلامية في فترة من أغنى فترات التاريخ الاسلامي نهضة

وعطاء. وهذه بعض أسباب خلود كل نتاج إنساني فكري بلا ريب.

* * *

إقــرأ

في الحلقة التالية

الأمير

إبراهيم بن الأغلب

الأمير

ابراهيم بن الأغلب

ودولة الأغالبة

أعلام من المغرب والأندلس

٤

الأمير
ابراهيم بن الأغلب
ودولة الأغالبة

تأليف
سيف الدين الكاتب

عز الدين للطباعة والنشر

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٢٦-٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧-ص.ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت - لبنان

الفصل الأول

الجذور الأغلبية في المغرب

- ١ -

شهِدتْ بدايات الخلافة العباسية عدة ثوراتٍ وانتفاضات معارضة، شملت كثيراً من أرجاء خارطة العالم الاسلامي آنذاك، ومردّ ذلك الى أسباب عدّةٍ، لعلّ أبرزها: إتساعُ رقعة الدولة الاسلامية، بحيث غدا كثير من الولايات العباسية في منجاة من القبضة العباسية، لبعدها عن مركز السلطة وعاصمة

الخلافة، مما أغرى الحركات الثورية بالتمرد، والانتفاض لإعلان الاستقلال في دولة أو دويلة خاصة قد تكون علاقاتها - في أحسن الأحوال - لا تزيد على أداء الجباية المالية المقررة للدولة العباسية، أما غالبية تلك الثورات فقد كانت تعلن الإنفصال عن الحاكم المركزي، والاستقلال بالحكم والسلطة، حتى تغدو خطراً جديداً يُهدّد أمن الدولة العباسية.

ولعل أكثر المناطق الاسلامية التي كانت مسرحاً للثورات الانفصالية، هي المنطقة الممتدة على ساحل الشمال الافريقي امتداداً. الى الاندلس، التي استطاع الأمويون أن يسلخوها من قبضة السلطة العباسية، ليقيموا على أرضها دولتهم الجديدة التي تعتبر استمراراً للدولة الأموية في المشرق الاسلامي.

يقول المستشرق ميور: إن إفريقية كادت تخرج عن طاعة العباسيين في معظم عهد (المنصور العباسي)، وإن البربر والعرب النازلين فيها مالوا الى مبادىء الخوارج، وما لبثوا أن خلعوا طاعة العباسيين الذين أخذوا يرسلون اليهم الجيوش تلو الجيوش، لإخضاعهم، ولكن دون جدوى، واستمرت مدينة (القيروان) تسقط في أيدي الثوار حيناً، وفي أيدي العباسيين حيناً آخر، الى قبيل نهاية خلافة المنصور.

ولا بد أن نؤكد على ظاهرة سادت سياسة الثورات الانفصالية، وهي قيام هذه الثورات في كثير من الأحيان تحت زعامة الولاة العباسيين أنفسهم على تلك المناطق، وإن لم يفُتنا هنا أن نذكر: أن بعض تلك الثورات

كـان ـ أحيانـاً ـ يبقى عـلى نـوع من العـلاقـة والارتباط بالدولة العباسية، وإن كانت علاقة صورية قد لا تزيد أحياناً على جباية الضرائب والخراج، ورفعها الى عاصمة الخلافة، كما ذكر قبل قليل.

ولا شك في أن نجاح الأمويين في إقامة دولتهم المستقلة في الأندلس، قد شجع وأغرى بعض الثوار بإعلان استقلال دولته عن الدولة العباسية، أملاً وطموحاً الى إقامة دولة تضاهي دولة الأمويين في الأندلس.

ويـرجـع بـعض أسبـاب الانـفـصـال والتمرد ـ بلا ريب ـ الى سياسة الولاة العباسيين في المنـاطق الأفريقيـة، والى تـركيبـة السكـان الأفارقة (قبـائل البـربر)، التي نجـح القادة الأوائل منذ بدايات الفتح الاسلامي في دعوتهم

الى الاسلام، وإقامة صلات الصداقة بينهم وبين العرب النازلين بأراضيهم.

ولكن هذه الصلات لم تدُمْ طويلاً، لأن (البربر) رأوا - بعد ذلك - انهم لم يعاملوا معاملة النظير للنظير، بل كان العرب يعاملونهم وفق سياسة السيد والمسود، فكان من أثر هذه السياسة التي انتهجها بعض الولاة بعد القرن الأول... أن وجد (البربر) في مذهب (الخوارج) و (الاباضية) ما ينفس عن ضيقهم وبرمهم بسياسة السيد والمسود، ومن هنا فقد شارك (البربر) في إثارة القلاقل والفتن في وجه العرب، حتى إننا إذا تتبعنا حوادث هذه البلاد منذ أواخر العهد الأموي تبين لنا ضعف نفوذ الخلافة في إفريقية.

لهذا لا نعجب إذا غدت القارة السمراء

مسرحاً للثورات في العصر العباسي، وذلك لبعدها عن السلطة المركزية في بغداد، ولما كانت تنطوي عليه نفوس (البربر) من كره وبغض لولاتهم، بسبب سياسة الضرائب الفادحة التي فرضوها عليهم..

وهكذا تجمعت الأسباب المساعدة على قيام دول مستقلة عن السلطة المركزية، فقامت دولة الأدراسة في المغرب الأقصى، سنة (١٧٢هـ - ٧٨٨م)، وقامت دولة الأغالبة في تونس سنة (١٨٤هـ - ٨٠٠م)، وهما أبرز دولتين قامتا في الساحل الأفريقي الشمالي على عهد الدولة العباسية الأول.

وترجع جذور الدولة الأغلبية الى الأغلب ابن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي، الذي

قام مع أبي مسلم الخراساني في خراسان، ثم قــدم إفـريقيـة مـع محمــد بن الأشعث سنة (١٤٣هـ - ٧٦٠م) كما يذكر ابن الأثير.

* * *

- ٢ -

كان محمد بن الأشعث أميراً على إفريقية من قِبَل (المنصور العباسي)، ثم خرج عليه سنة (١٤٧هـ - ٧٦٤م) وخلع طاعته، فلما بلغ المنصورَ خروجُ محمد بن الأشعث بعث الى الأغلب بن سالم التميمي عهداً بولاية إفريقية، فقدم الأغلبُ الى القيروان في سنة (١٤٨هـ - ٧٦٥م).

قال ابن الأثير في الكامل: (٥/٢٦):

فلما أتاه العهدُ، قدِمَ الأغلبُ القيروان في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين ومائـة، ثم خـرج عليـه (أبـو قـرّة) في جمـع كثير من (البربر)، فسار اليه الأغلب، فهرب أبو قرة من غير قتال، وسار الأغلب يريد (طنجة)، فاشتد ذلك على الجند، وكرهوا المسير، وتسللوا عنه الى القيروان، فلم يبق مع الأغلب إلا نفرٌ يسيرٌ، وكان (الحسن بن حرب الكندي) بمدينة تونس، فحرّض الجنـد وكاتَبهُمْ ودعـاهم الى نفسه، فأجابوه فسار حتى دخل بهم القيروان من غير مانع.

وبلغ الأغلبَ خبر الحسن الكندي، فعاد مجدّاً يريد القيروان، ولكن بعض أصحابه أشار عليه أن لايدخلهـا ويلقى الحسن الكندي في

هـذه العـدة القليلة، فـانحـاز الأغلب الى (قابس) وأتاه جنده حتى كثر جمعهم، فسار بهم للقاء الحسن الكندي، واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم الحسن، وقُتِل من أصحابه جمع كثير، ومضى الحسن بمن بقي من جنده الى تونس في جمادى الآخرة سنة خمسين ومائة، ودخل الأغلب القيروان، ثم إن الحسن الكندي حشد وجمع فصار في عدة عظيمة، فقصدوا الى الأغلب، فخرج اليه الأغلب من القيروان، فالتقوا واقتتلوا، فأصاب الأغلب سهم فقتله، وثبت أصحابه، وتزعمهم رجل يقال له (المخارق بن غفار)، فحمل المخارق على الحسن فهزمه الى تونس، ثم ظفر به فقتله بعد ذلك.

قال : قُتِل الأغلب على أبواب القيروان .

وقبرهُ هناك يعرف بقبر الشهيد . ولما بلغ الخليفة المنصور نبأ مقتل الأغلب ، ولى إفريقية أبا جعفر (عمر بن حفص) من ولد قبيصة أخي المهلب بن أبي صفرة ، فوصل الى القيروان وقد استولى عليها جند الأغلب .



الفصل الثاني

مؤسس الدولة الأغلبية

(١٨٤ـ ١٩٦هـ=٨٠٠ـ ٨١١م)

تمكن (عمر بن حفص) من إقرار الأمن في أطراف إفريقية نحواً من ثلاث سنين، ثم سار الى أطراف (الزاب) لبناء مدينة (طُنبة)، فانتهز البربر من الخوارج فرصة تغيبه عن إفريقية، وهاجموا مدينة (القيروان).

ثم انتفضت إفريقية من كل جانب، ولم

تزل أوضاعها السياسية والأمنية تتردى الى أن قُتِل (عمر بن حفص)، وكادت ثورات الخوارج أن تطيح بالحكم العباسي في إفريقية، لولا أن سارع (المنصور) بإرسال حملة عسكرية ضخمة، جعل قيادتها ليزيد بن حاتم، الذي تمكن من إعادة الهدوء وإقرار الأمن لبعض الوقت في أرجاء الولاية الافريقية.

ولكن قبائل البربر من (الخوارج) ظلت تناوىء سلطان العباسيين بعد ذلك، وقد أخذت كفة النصر ترجح في جانبهم حيناً. وفي جانب العباسيين حيناً آخر، حتى بعث اليهم الخليفة (الرشيد) جيشاً كثيفاً بقيادة (هرثمة ابن أعين) فوصل الى إفريقية في سنة (١٧٩هـ - ٧٩٥م)، واستطاع أن يضعف قوة الخوارج.

غير أن (هرثمة بن أعين) أدرك بثاقب نظره وطول خبرته تأصل العداء في نفوس البربر، واستحالة فوز العباسيين عليهم، فبعث بكتبه الى الخليفة الرشيد يعتذر عن بقائه في إفريقية، ويستعفي من المهمة الموكلة اليه.

واستقدم الرشيدُ (هرثمة) وولى مكانه (محمد بن مقاتل العكي) فأساء معاملة الأهلين، فتجددت ثورات البربر والعرب ودخلوا القيروان فاحتلوها.

وعندما فكر الرشيد في أمر إفريقية، رأى أن مصلحة الدولة تقضي بأن يبحث عن شخصية فذة تتولى مهمة الولاية على أمر المغرب، وتحافظ على ارتباطه بالسلطة المركزية، فكان ان وقع اختياره على (ابراهيم بن الأغلب

التميمي). فولّاه بعض نواحي (الـزاب)من بلاد الجريد.

لقد كان من أثر العداء الذي أضمره البربر للأمويين ثم العباسيين، أنهم مالوا الى مذهب (الخوارج)، وكان ذلك سبباً في إشعال نار كثير من الفتن والقلاقل والثورات في تلك البـلاد، وعمل بعضهم على إقامة دول استقلت استقلالاً شبـه تـام. ومن هـذه الـدول والـولايـات: « تاهـرت » التي أسسهـا عبـد الرحمـن بن رستم بمساعدة الإباضية من الخوارج، وولاية « سجلماسة » التي تأسست بمساعدة الصفريـة الزناتيين، وولاية « تلمسان » التي أسسها بنو قرّة الصنهاجيون، ودولة الأدارسة التي أسسها إدريس بن عبد الله العلوي.

وقـد كان نشـاط العلويـين والخـوارج في

المغـرب سبباً في تـوليـة إبـراهيم بن الأغلب التميمي، ومن ثم سبباً في قيام الدولة الأغلبية بعد ذلك.

وكان قيام دولـة الأغالبة في تونس نتيجة تلك السياسة التي انتهجها الرشيـد في سبيل تأديب البربر وغيرهم من الثوار، والوقوف في وجه الأدارسة إذا أرادوا الإغـارة على أراضي الدولة العباسية، وقد طلب إبراهيم بن الأغلب الى الرشيد أن يوليه إفريقية، على أن ينزل عن المطالبة بما كانت ترسله (مصر) من الأموال التي اعتادت ان ترسلها اليها في كل سنة، وكان مقدارها مائة الف دينار، كما تعهد ابراهيم بن الأغلب بأن يرسـل الى بيت المال في بغـداد أربعين الف دينار، ويقال: إن هرثمة بن أعين هو الذي اقترح على الرشيد تولية إبراهيم بن

الأغلب هذه البلاد لما رآه من عقله وكفاءته، فولّاه الرشيد إياها سنة (١٨٤هـ - ٨٠٠م).

* * *

كان إبراهيم بن الأغلب - كما يقول ابن عِذاري - فقيهاً أديباً، شاعراً خطيباً، ذا رأي ونجدةٍ وبأس، وحزم وعلم بالحروب ومكايدها، جريء الجنان طويل اللسان، لم يلِ إفريقية أحسن سيرة منه، ولا أحسن سياسة، ولا أرأف برعيةٍ، ولا أوفى بعهدٍ، ولا أرعى لحرمة منه، فطاعت له قبائل البربر، وتمهدت إفريقية في أيامه واستقامت الأحوال بها.

قال ابن عذاري المراكشي (البيان المغرب: ٩٢/١):

وكان إبراهيم بن الأغلب قد سمع من

الليث بن سعد الفقيه، ووهب له جارية يقالُ لها (جلاجل) لمكانه منه. ولقد قال الليث يوماً: ليكوننّ لهذا الفتى - يعني إبراهيم - شأنٌ. وكان لإبراهيم فضائل جمّة، ومآثر حسنة، وكان له مع (راشد) أمير المغرب في أوائل الدولة الادريسية مواقف ومحاربة.

ويقول الدكتور حسن ابراهيم حسن في تاريخ الإسلام: ٢/٢١٣ - ٢١٤):

كان إبراهيم بن الأغلب على جانب عظيم من الشجاعة ورجاحة العقل، وقد آنس فيه الذكاء أستاذه (الليث بن سعد)، وكان إمام اهل مصر في الفقه والحديث، فقال: « ليكوننَّ لهذا الفتى شأن ». وقال الامام الشافعي رضي الله عنه إنه أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به. أي تلاميذه لم ينشروا مذهبه، كما

فعل أهل العراق مثلاً بمذهب الامام ابي حنيفة.
وقد صدقت فراسة الليث بن سعدٍ في ابراهيم، فإنه لما آلت اليه مقاليد الحكم في إفريقية ضبط أمورها، وبنى في سنة (١٨٥هـ-٨٠١م) مدينة عظيمة على بعد ثلاثة أميال من القيروان، سماها (العباسية)، ويظهر أنه اتخذ هذه التسمية لإظهار ولائه للخليفة العباسي، والاعتراف بسلطان الدولة العباسية عليه.

على أن الثورات لم تلبث أن سارت سيرتها الأولى في بلاد المغرب، ففي سنة (١٨٦هـ-٨٠٢م) خرج على ابراهيم بن الأغلب رجل يدعى (حمديس)، كان من العرب النازلين بمدينة تونس، فبعث ابن الأغلب لقتاله جيشاً كبيراً جعل قيادته لعمران بن مخلد، فسار عمران في طلب حمديس فأحل

بهِ الهزيمة، وقتل من جنده آلافاً ، ودخل تونس.

وفي سنة (١٨٩هـ ـ ٨٠٥م) انتشرت الثورة في (طرابلس)، وكانت تابعة لأمير إفريقيا، وكان سبب الثورة بغض أهل طرابلس لولاتهم، وعزمهم على إخراج واليهم (سفيان ابن المضاء)، وكان قد ولي هذه البلاد للمرة الرابعة، وأخرجوه من داره، وطاردوه الى المسجد، وقتلوا أصحابه فيه، وأرغموه على العودة الى القيروان، ولمّا يمضِ على ولايته سبعة وعشرون يوماً، وولوا عليهم (إبراهيم بن سفيان التميمي)، ولكنه لم يتمكن من إقرار الأمن في البلاد، بسبب النزاع بين العرب والأبناء [الذين يجمعون بين الدم العربي والدم البربري]، فأرسل إبراهيم بن الأغلب اليهم جيشاً فأحضرهم الى القيروان، ولكنه عفا عنهم.

وولى إبراهيم بن الأغلب ابنه أبا العباس عبد الله على طرابلس، غير أنه لقي كثيراً من الشدائد من ناحية البربر أول الأمر، حتى لقد أرغموه على الخروج من المدينة، ولكنه استطاع بعد ذلك أن يستميل أهالي (طرابلس) اليه، بما أغدق عليهم من الأموال والعطايا، وعلى الرغم من دخول عبد الله بن ابراهيم مدينة طرابلس، إلا أن أباه لم يأمن عليه البقاء فيها، فولى سفيان ابن المضاء للمرة الخامسة، فثارت الأهالي عليه، ودخلوا مدينة (طرابلس) وهدموا أسوارها، فأرسل اليهم ابراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله ثانيةً على رأس ثلاثة عشر ألف فارس، فهزَمَ البربرَ، وقتلَ منهم الكثير، ودخل طرابلس، وأعاد بناء أسوارها.

ثم خرج لقتال الأغالبة رجل يقال له: عبد

الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم جمع البربر وحرّضهم على القتال، وظل القتال قائماً بين البربر والأغالبة الى أن توفي إبراهيم بن الأغلب، وآلت إمارة الأغالبة الى ابنه (عبد الله) فاضطر الى مصالحتهم: على أن يكون البلد والبحر لعبد الله، وما كان خارجاً عن ذلك لابن رستم.

وكما كان إبراهيم بن الأغلب يخشى شرأهالي طرابلس، الذين تألبوا عليه، وحرّضوا القبائل على قتاله، كذلك عمل على القضاء على دولة الأدارسة العلوية في بلاد المغرب ليأمن جانبهم، وكان قد بلغه أن إدريس الثاني قد كثر جمعه، فأراد قصده لقتاله، ولكن أصحابه أشاروا عليه بالعدول عن ذلك، وقالوا له: «اتركه ما تركك». ثم إن إدريس الثاني نفسه كتب الى

إبراهيم بن الأغلب، يستعطفه ويسأله أن يعدل عن قتاله ومناصبته العداء، ويذكر له قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم، فكف ابراهيم ابن الأغلب عنه.

وهكذا استقرت الأمور لابراهيم بن الأغلب، فشغل نفسه بالعلم والعمران، ولم يسلم الأمر الى ابنه (أبي العباس عبد الله) من بعده الا بعدما قمع كافة الثورات التي كانت تحيط بدولته، وتوفي رحمه الله في سنة (١٩٦هـ - ٨١١م) عن ست وخمسين سنة، وكان مولده سنة (١٤٠هـ - ٧٥٧م) كما أجمع المؤرخون.



- ٣ -

الدولة بعد مؤسسها الأول

كان إبراهيم بنُ الأغلب واحداً من الشخصيات الفذة النادرة التي وليت أمور تلك البقعة الملتهبة من العالم الاسلامي، وقد كان فيه من الشجاعة ما أخمد كل فتنة أشرأبت بعنقها من حوله... وكان فيه من العلم والفقه والتقوى ما سطره التاريخ من مواقف عفوه عمن ظفر بهم من أعدائه ومقاتليه، عند مقدرته

على الفتك بهم والانتقام منهم، وكان في إبراهيم بن الأغلب من الكياسة والحصافة والرأي والسياسة ما جعل الأعداء يجلّون منزلته، فقد طالما وعت لنا ذاكرة التاريخ أنّ إبراهيم بن الأغلب استقبل سفراء (شارلمان) ملك الأفرنج في (العباسية) حاضرة الدولة الأغلبية، وكانوا قدموا عليه في طلب (شارلمان) نقل رفات أحد القديسين في (قرطاجنة) الى (إكس لا شابل) حاضرة الفرنجة، وهذا يدل على ما بلغه إبراهيم بن الأغلب من علو المنزلة ـ حتى في رأي أعداء الاسلام، والالم يلجأ (شارلمان) اليه من دون أن يرجع الى الخليفة العباسي.

وهذا ضرب من السياسة الخارجية المعتدلة، التي كانت تفتقر اليها حكومات الدول

المغربية الأخرى، يضاف اليها ما عـرفناه من حزم ابراهيم في السياسة الداخلية، واستقامته في معاملة الرعية، ووفائه بالعهد والذمة، ورعايته للحرمات، حتى قال فيه ابن عذارى المراكشي: لم يل إفريقية أحسن سيرة منه.

وقبل أن يموت إبراهيم بن الأغلب عهد بولاية العهد من بعد لابنه (عبد الله) ولم يكن (عبد الله) كأبيه في حزمه ورأيه واستقامته وشجاعته وعلمه وفقهه، بل لقد ذكر ابن عذاري المراكشي أنه كان سيء السيرة حتى مع أهل بيته، وكانت سياسته في الرعية أسوأ، حتى اتخذ المؤرّخون من سوء سيرته مصدراً لتأليف القصص حول حياته، وكانت ولاية عبد الله بن إبراهيم خمس سنين (١٩٦ ـ ٢٠١هـ=٨١١ ـ ٨١٦م)، وخلفه أخوه

زيادة الله الأول سنة (٢٠١هـ ـ ٨١٦م).

قال مؤلف تاريخ الاسلام: (٢/٢١٦ ـ ٢١٧):

كان زيادة الله من أطول الأغالبة عهداً بالحكم، وكان ـ كأخيه عبد الله ـ يميل الى الظلم والجور، ويمتاز عهده بقيام بعض الثورات، ومحاولة فتح جزيرتي (سردينيه) و (صقليه) في البحر الأبيض المتوسط.

وقد قضى زيادة الله الست سنوات الأولى من عهده آمناً مطمئناً، حتى خرج عليه سنة (٢٠٧هـ ـ ٨٢٢م) رجل يقال له (زياد بن سهل) المعروف بابن الصقلبية. لكن الهزيمة حلت به هو وأنصاره، وفي السنة التالية خرج (منصور الطنبذي) في تونس، فسير اليه زيادة الله جيشاً، فهزمه (منصور)، فأعاد زيادة الله

الكرة عليه في جيش على رأسه وزيره وابن اخيه (الأغلب بن عبد الله بن الأغلب) وقد بلغ من اهتمام زيادة الله بالأمر انه شيع الجيش، وهدّد قائده وجنده بالقتل إذا حلت بهم الهزيمة ، ولكن ذلك كله لم يحُلْ دون إلحاق الهزيمة بجيش الأغالبة .

وقد اضطربت أحوال إفريقية، وكادت تخرج من يد زيادة الله الذي أثار كراهية أهلها بسوء سيرته وقسوته، وقد تفاقم خطر (منصور)، فسار الى القيروان وحاصرها وحارب زيادة الله في كثير من المواقع التي انتهت بهزيمة (منصور) وهربه سنة (٢٠٨هـ - ٨٢٣م)، ثم ما لبثت شوكته أن قويت، فأضعف دولة الأغالبة حتى لم يبق في يد زيادة الله سنة (٢٠٩هـ - ٨٢٤م) غير

(قابس) والساحل و (نفزاوة) و (طرابلس) .
ولم تنته ثورة المنصور الطنبذي إلا في سنة (٢١١هـ - ٨٢٦م) حيث خرج عليه أحد قادته وكان بينهما قتال طويل انتهى بمقتل (منصور) ، ويومذاك اطمأن زيادة الله واغتبط لمقتله، وكان اغتباطه أكبر بوفاة القائد الذي ثار على منصور الطنبذي ،ويومها قال زيادة الله الأغلبي : « اليوم وضعت الحرب أوزارها » .

على أن عهد زيادة الله الأغلبي الأول - رغم ما حفل به من اضطرابات داخلية وثورات - فقد توّجَهُ بلا ريب فتح جزيرة صقلية ، وربما جاز لنا أن نعدَّ هذا الفتح أهم حدثٍ في تاريخ إفريقية في مطالع القرن الهجري الثالث ، وفي تاريخ الدولة الأغلبية

خاصة ، في وقت كادت الفتوح الإسلامية أن تكون معطلة أو شبه معطلّة .

* * *

- ٤ -

فتح جزيرة صِقلّية

تـذكر المصـادر العـربيـة أن ملك الـروم بالقسطنطينية، استعمل على جزيرة (صقلية) بـطريقـاً اسمـه (قسـطنـطين)، وذلـك سنـة (٢١١هـ - ٨٢٦م)، فلما وصل هذا البطريق الى (صقلية)، استعمل على الأسطول قـائداً حازماً شجاعاً يسمى (فيمي)، فغزا إفريقية وأخذ من سواحلها، وبقي هناك مدة، ثم إن

ملك الـروم كتب الى (قسـطنـطين) يـأمـــره بـــالقبض عـــلى (فيمـي) لأسبـــاب اخـتلف المؤرخون فيها، ولما بلغ (فيمي) الخبر استشار جندَهُ، فأعـانوه عـلى المخالفـة، فسار بهم في مراكبه الى (صقلية)، واستولى على بعضها، فسار اليه قسطنطين، ولكنه لم يلبث أن انهزم أمام (فيمي) .الذي نصب نفسـه ملكاً عـلى (صقلية) .

ولم يـستـطع (فـيمـي) الاحـتـفـاظ بـ (صقلية) طويلاً؛ إذ هاجمته قوات ملك الروم وهزمته، ففرّ الى إفريقية، واستغاث بـأميرهـا زيـادة الله الأغلبي الأول، ودعـاه إلى فتــح (صقلية)، ووصف له غناها وسهولة الاستيلاء عليها.

وجمع زيادة الله مجلسه الحربي المؤلف من

وجوه أهل (القيروان) وفقهائها، ومنهم أسد بن الفرات، وأبو محرز القاضيان، والفقيه سحنون ابن سعيد، واستشارهم في أمر فتح (صقلية)، فاضطربت الآراء أول الأمر ثم أخذ زيادة الله برأي أسد بن الفرات، وأعلن النفير لغزو جزيرة صقلية، وعين أسد بن الفرات أميراً على الجند إضافة الى كونه القاضي، ولم تجتمع الإمارة والقضاء ببلد في إفريقية لغيره.

ومن يطالع سيرة (أسد) يعلم أنه كان من رجالات الفقه والعلم والفضل الى جانب خبرته في الحروب، وقد جاء الأمر على قدر... وخرج أسد بن الفرات سنة (٢١٢هـ - ٨٢٧م) لغزو (صقلية) وكان معه عشرة آلاف رجل، وعندما صهلت الخيل وخفقت البنود قال أسد:

- لا إله إلا الله وحده لا شريك له... يا

معشر الناس.. ما بلغتُ ما ترون الا بالعلم... فأجهدوا أنفسكم فيه... وثابروا على تدوينه تنالوا الدنيا والآخرة...

وتحرك أسد بن الفرات على رأس جيشه الى هدفه (صقلية)، وفي طريقه فتح جزيرة (قوصرة) صلحاً بعد ثلاثة أيام من إقلاعه من ميناء (سوسة). وفي اليوم الرابع رست سفن (أسد) في ميناء (مازر) على ساحل (صقلية) الغربي، وهو أقرب ثغورها الى إفريقية، وهناك جرى إنزال المسلمين فلم يجدوا من يدافع عن المدينة، لاختلاف أمور الروم واضطرابها.

ونفذ المسلمون الى شرق الجزيرة لمقاتلة الروم الذين اجتمعوا حول (بلاتة) أمير

صقلية، وهناك أجتمع الى أسد (فيمي) وأنصاره ليقاتلوا معه، فأبى أسد بن الفرات، وطلب اليهم أن يعتزلوهم قائلاً لفيمي: اعتزلونا، لا حاجة لنا بأن تُعينونا.

ودار القتال في ميدان بين (مازر) و (بالرمو)، وتقدم أسد يحمل اللواء بيد، والسيف باليد الأخرى، وهو يدعو الله، فحمل على الروم، وحمل الناس معه، فهزم (بلاتة) وجرح في هذه المعركة، واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة.

وانتصر المسلمون على جيش الروم الذي يفوقهم عدة وعدداً، وفرّ الروم نحو الجبهة الشرقية من الجزيرة، وحشدوا جموعهم حول مدينة (سرقوسة)، فرأى أسد أن يستثمر هذا الفوز، فسار بجيشه يقتفي أثر المنهزمين.

وحاصر (أسد) سرقوسة براً، بينما حاصرتها سفن المسلمين بحراً، ووصلت الأمداد من إفريقية اليهم، بينما سيرت الروم أسطولاً بيزنطياً من القسطنطينية، فاشتدت مقاومة الروم، ونشبت بينهم وبين المسلمين معارك طاحنة في البر والبحر، جُرِحَ أسد فيها جروحاً بليغة، لكنه ظل يقاتل حتى استشهد أثناء محاصرة المسلمين (سرقوسة) وذلك سنة (٢١٣هـ - ٨٢٨م) فدفنه المسلمون هناك.

وتولى أحد رجال أسد من بعده، وامتنع المسلمون بداخل الجزيرة، وتفرقوا فيها سرايا يغزون أراضيها ويحاصرون قلاعها حتى تم لهم النصر سنة (٢١٤هـ - ٨٢٩م). وظلت (سرقوسة) في قبضة الروم في صقلية، فتم لهم بذلك فتح الجزيرة وأسسوا إمارة كانت تابعة

لحكومة (إفريقية) ثم استقلت بعد ذلك عنها حينما سقطت دولة الأغالبة.

* * *

الفصل الثالث

سقوط دولة الأغالبة

توفي زيادة الله الأول سنة (٢٢٣هـ ـ ٨٣٧م) فخلفه أخوه (أبو عقال)، وكان ثالث أبناء ابراهيم بن الأغلب الذين ولوا إمارة الأغالبة بعده على التوالي. وكان أبو عقال أحسن سيرة من أخويه، فأجزل العطاء للعمال، وقبض أيديهم عن الرعية، ومنع النبيذ عن القيروان، وعاقب على بيعه وشرائه وشربه،

وتُوفِّي أبو عقال سنة (٢٢٦هـ - ٨٤٠م)، فخلفه ابنه (ابو العباس - محمد الأول).

كان أبو العباس من أطول امراء الأغالبة عهداً، إذ حكم بين سنتي (٢٢٦ - ٢٤٢هـ=٨٤٠ - ٨٥٦م)، وقد تخللت عهده حوادث كثيرة كان أشدها خطراً اغتصاب اخيه (أحمد) الإمارة منه، وما تبع ذلك من فتن بين أبناء البيت الواحد، امتدت نيرانها حتى شملت الدولة الأغلبية، ثم ما لبث أبو العباس أن ظفر بأخيه (أحمد) ونفاه الى المشرق فمات بالعراق.

وعندما فرغ ابو العباس الأغلبي من تلك الفتن الداخلية تفرغ للاستيلاء على جزيرة صقلية وإتمام فتحها، واهتم لهذه الحرب اهتماماً جعله في مرتبة الجهاد ضد الروم، فولى العباس

ابن الفضل الغزاري تتمة الفتح، فسار اليها، ولكن يظهر أن المسلمين كانوا يستولـون على بعض المدن الصقلية، ثم ما يلبثون أن يتخلوا عنها تحت ضغط الروم، فكانت حرب المسلمين في هذه الجزيرة كما يقال: حرباً مائعة ثابتة.

وفي سنـة (٢٤٢هـ-٨٥٦م) تـوفي أبـو العباس محمد الأول بعـد أن حكـم نحواً من خمسة عشر عاماً، فخلفه ابنه أحمد، وكان ـ كما يقول ابن عذاري في البيان المغرب ـ : حسن السيرة، كريم الأخـلاق والأفعال، من أجـود الناس وأسمحهم وأرفقهم بالرعية، مـع دينٍ واجتناب للظلم منذ حداثة سنة وقلة عمره. وكان يركب في ليالي شعبان ورمضـان، وبين يديه الشمع، فيخرج من القصر القديم فيمشي حتى يدخل من أحـد أبواب القيـروان، ومعه

دواب بالدراهم، فكان يعطي الضعفاء والمساكين حتى ينتهي الى المسجد الجامع بالقيروان.

ولم يطل حكم أحمد، حيث توفي (٢٤٩هـ - ٨٦٣م)، فخلفه أخوه: زيادة الله الثاني، الذي لم يلبث أن توفي سنة (٢٥٠هـ - ٨٦٤م) وتولى بعده ابن أخيه محمد الثاني بن أحمد الملقب بأبي الغرانيق.

وصف ابن عذاري المراكشي أبا الغرانيق بقوله: كان مسرفاً في العطاء، مع حسن سيرته في الرعية، ثم غلبت عليه اللذات.

ولم يقع في عهد ابي الغرانيق ما يستحق الذكر سوى متابعة فتح (صقلية)، مقتدياً في ذلك بأسلافه. وتوفي أبو الغرانيق سنة (٢٦١هـ - ٨٧٥م) بعد أن حكم إفريقية وما

يليها نحواً من عشر سنين، عاصر خلالها من الخلفاء العباسيين: المستعين، والمعتز، والمهتدي، والمعتمد، وأقرّه كل منهم على ولايته على ما جرت به العادة في ذلك العصر.

بعد أبي الغرانيق تولى الإمارة ابراهيم الثاني ابن أحمد الأغلبي، الذي يعتبر أطول أمراء الأغالبة عهداً بالإمارة على الاطلاق، وقد وقعت في عهده أحداث وأمور كثيرة، منها الحرب التي دارت بينه وبين العباس بن أحمد بن طولون، ولكن أهمها فتح (سرقوسة) نهائياً سنة (٢٧٤هـ ـ ٨٨٧م). وفي عهده تم بناء مدينة (رقادة) في سنة (٢٦٣هـ ـ ٨٧٦م).

كان إبراهيم الثاني ـ كما وصفه ابن الأثير ـ: عادلاً حازماً في أموره، آمن البلاد وقتل أهل البغي والفساد، وكان يجلس للعدل

في جامع القيروان يومي الخميس والاثنين، يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم، وكان عاقلاً حسن السيرة، محباً للخير والإحسان، تصدق بجميع ما يملك، ووقف أملاكه جميعها، وكانت له فطنة عظيمة بإظهار خفايا المكائد.

توفي إبراهيم الثاني في (٢٨٩هـ - ٩٠١م) بعد أن حكم ثمانياً وعشرين سنة تقريباً. وبويع بعده لابنه عبد الله الذي لم يلبث في الحكم الا تسعة أشهر، حيث قتل بيد غلمانه فولي الإمارة بعده ابنه زيادة الله الثالث، الذي بدأت في عهده أعمال أبي عبد الله الشيعي دعي الفاطميين، فوقع في يده كثير من المدن.

قضى زيادة الله الثالث أيامه في اللهو والترف، وكان وزراؤه لا يبالون الا بنجاح

المذهب الفاطمي الذي اعتنقه أكثرهم، وساعدوا على إزالة سلطان الأغالبة، ومدّ نفوذ الفاطميين الى أكثر أجزاء إفريقية.

وفي سنة (٢٩١هـ-٩٠٣م) غدا الفاطميون أصحاب النفوذ المطلق في جميع الجهات الواقعة الى الغرب من مدينة القيروان أكبر مدن بلاد المغرب.

وفي سنة (٢٩٦هـ-٩٠٨م) دخل الفاطميون مدينة (رقادة)، ولما بلغ خبرهم زيادة الله الثالث، حمل ما قدر على حمله من متاعه وفرّ هارباً حيث لاذ بطرابلس الغرب، وزال بذلك سلطان دولة بني الأغلب عن تونس الى الأبد.

* * *

القاضي

أبو بكر بن العربي

أعلام من المغرب والأندلس

٥

القاضي
أبو بكر بن العربي

تأليف
سيف الدين الكاتب

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦-٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧-ص.ب: ١٥١٥/١٣ بيروت - لبنان

الفصل الأول

ابن العربي: عصره وبيئته

- ١ -

كما تزحف الشمس على الأفق الغربي، مؤذنة بانقضاء نهار قد استنفد أسباب وجوده.. كذلك أفلت شمس الخلافة الأموية بوفاة وزيرها المنصور بن ابي عامر، في أواخر القرن الهجري الرابع، حيث دب إليها من اسباب الضعف ما تركها صورة هزيلة لتلك الدولة الأندلسية التي كانت منبع الحضارة الأوربية الحديثة.

لقد كان المنصور العامري درة في جبين الدولة الأندلسية الأموية ـ لا ريب ـ بما حبته الاقدار من مقومات الشخصية النافذة القوية، التي تفتقر إليها كل دولة، ومن هنا فقد كانت حياة المنصور سبباً من أسباب تماسك الأندلس، على أنها كانت في الوقت نفسه تشكل تهديداً للوجود النصراني في الشمال، فقد طالما هزم النصارى تحت مطارق المنصور، في أكثر من خمسين وقعة كانت بين الطرفين في الشمال الأندلسي.

ولما قضى المنصور نحبه في أواخر القرن الهجري الرابع، اشرأبت أعناق الصليبيين إلى ديار الاسلام، لما آل إليه حال الدولة الاسلامية من تمزق، وتقوقع في دويلات هزيلة عرفت في التاريخ بـ (دول ملوك الطوائف).

واستطاعت الغزوات الصليبية أن تسلخ إقليم (قشتالة)، مفيدة من تمزق دويلات المسلمين، وفرضت هنالك الجزية، واخذت في توسيع حدودها على حساب التمزق الاسلامي.. وبلغت الأمور ذروة خطورتها باستيلاء النصارى على طليطلة.

كان بين من استقل بالحكم في ولايات الأندلس (بنو عباد) الذين اتخذوا من (إشبيلية) قاعدة لمملكتهم، وشرعوا في بسط نفوذهم، وعمل أميرهم (المعتضد بالله) على ضم دول أخرى إلى مملكته شأن جميع ملوك الطوائف، فضم إليها دول (لبلة) و(مالقة)، و(باجة) وغيرها.. فلما ولي بعده ابنه (المعتمد ابن عباد) ضم إليه (اركش) و(قرمونة) و(مرسية) و(مورور) و(قرطبة) وغدت دولة بني عباد

في عهده من أقوى الممالك الأندلسية.

وكان على المعتمد بن عباد أن يدفع ضريبة هذا التوسع السياسي، وذلك بالتصدي للغزاة الصليبيين الذين أنهكوا الدولة الاسلامية بغزواتهم، ولكن المعتمد بن عباد رأى في أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) زعيم المرابطين في المغرب الرجل الذي يمكن الاعتماد عليه في مواجهة الغزوات الصليبية، وفي سنة (٤٧٩ هـ ـ ١٠٨٦ م) عبر المعتمد البحر قاصدا مدينة (مراكش) حاضرة الدولة المرابطية مستنجدا بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وطلب إليه الحضور لنجدة المسلمين والجهاد ضد المسيحيين في الأندلس، فلبى ابن تاشفين نداء المعتمد، وقال له: «انا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الامر أحد إلا أنا بنفسي».

وعندما لغط أعوان المعتمد من حوله، وخوفوه من تسلط ابن تاشفين على الديار الأندلسية كان جوابه: «إن رعي الجمال خيرٌ من رعي الخنازير». وكان يشير بذلك إلى ما يحدق بالأندلس من أخطار تهدده بها جيوش الصليبيين رعاة الخنازير، ومن هنا فقد آثر التعاون مع يوسف ابن تاشفين الذي كنى عنه برعي الجمال، لطرد رعاة الخنازير.

عبر يوسف بن تاشفين البحر من (سبتة) في أسطول يتألف من مائة سفينة، تحمل سبعة آلاف فارس، وعدداً كبيراً من الرجال، اتجه نحو شرق الأندلس، وطلب إليه المعتمد بن عباد أن يدخل حاضرة ملكه (إشبيلية) ليستريح فيها أياماً من وعثاء السفر، ومشقة الطريق قبل أن يلقى العدو الصليبي، ولكن ابن تاشفين أبى

وقال: إنما جئت عازماً على جهاد العدو، فحيثما كان العدو توجهت إليه.

وفي موقعة الزلاقة قارعت جيوش المسلمين بقيادة المعتمد وابن تاشفين جيوش (الفونس) ملك (قشتالة) فأظفر الله الجيش الاسلامي، وكانت موقعة الزلاقةبحق من المواقع الحاسمة في التاريخ، ولا غرو أن يثير هذا الانتصار الباهر إعجاب ملوك الأندلس بيوسف بن تاشفين، حتى أشار بعض المؤرخين إلى أنه لو أتيح له أن يستغل نتائج انتصاره في موقعة الزلاقة، لكانت أوربا الآن تدين بالاسلام، ولرأينا القرآن يدرس في جامعات باريس ولندن وبرلين وموسكو.

كانت هذه المعركة الظافرة سببا من أسباب التماسك الإسلامي في الأندلس، ولعل لنا أن

نقول إنها أخرت سقوط الأندلس في قبضة الصليبيين أربعة قرون، بما حققت للإسلام والمسلمين من عزة وقوة في بلاد الأندلس.

ولقد تكررت محاولات الفونس السادس في غزو المعتمد بن عباد بعد رحيل ابن تاشفين، وتكررت دعوة المعتمد لابن تاشفين إلى بلاد الأندلس، ولكن يوسف أحس أن الأمر أخطر من أن يدرأ على جبهة واحدة من جبهات المسلمين في الأندلس، فرأى أن يوحد جهودهم وقواهم في جهاد النصارى، فكتب إلى ملوك الطوائف بالأندلس يدعوهم إلى الاجتماع لمنازلة الصليبيين، وطلب إليهم أن يجمعوا جموعهم في حصن (لييط).

ولما وصلت جيوش يوسف بن تاشفين إلى هذا الحصن ساءه عدم استجابة الأمراء

الاندلسيين إلى دعوته وساءَهُ أكثر أن بعضهم صالح (الفونس السادس)، فلم يجد يوسف بن تاشفين بداً من التوجه إلى بلاد الأندلس للاستيلاء عليها من أولئك الأمراء بعدما فرغ من قتال (الفونس السادس)، ومنذ ذلك الوقت امتد حكم الدولة المرابطية إلى الأندلس، وفي مدى سنة ونصف أخضع يوسف ابن تاشفين ممالك خمسة أمراء هم: ابن عباد وابن حبوس وابن الأحوص وابن عبد العزيز وعبدالله بن بكر، وكان توحيد هذه الممالك يشكل خطراً على المحاولات الصليبية لغزو بلاد الأندلس الاسلامية.

هذه المقدمة تضع امام القارئ صورة الاضطراب الذي عم أرجاء الدولة الإسلامية في الأندلس خلال الفترة التي امتدت من بداية

القرن الهجري الخامس إلى نهايته، وقد ظلت هذه حال الأندلس من ضعف إلى قوة ثم إلى ضعف بحسب ما يتاح لها من أمراء يقومون على أمورها.

ولقد كان ابن عباد أميراً شهماً شجاعاً معروفاً بالأصالة العربية والتمسك بأهداب الإسلام، ولكن فترة حكمه شهدت أمراء على بعض الممالك الاندلسية الأخرى لم يكونوا في مستوى ابن عباد حكماً وحكمة وسياسة، فتركوا البلاد نهباً للفرقة والتنازع، مما دفع ابن تاشفين إلى التفكير في إقصائهم وتوحيد البلاد تحت راية الإسلام، والدفاع عنه ضد الغزاة الصليبيين، وقد أجمع المؤرخون على أن عهد يوسف بن تاشفين كان عهد (المرابطين) الذهبي، فقد أخذَتْ الدولة المرابطية في الضعف بعد موته،

وخلفه أمراء كانوا أقل منه حنكة وأضعف قوة ، وصادفتهم ظروف سيئة داخلياً وخارجياً . . عجلت بسقوط دولتهم بعد ذلك.

* * *

- ٢ -

في هـذا العصر، وفي حـاضـرة الـدولـة العبادية (اشبيلية)، التي كانت كبرى الأندلس، ولد القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد ابن عبد الله بن أحمد بن العـربي المعافـري، وكانت ولادته كما ذكر هو بنفسه: يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة (٤٦٨ هـ ١٠٧٦ م)، وكان بلاط المعتمـد بن عباد

يومذاك مرتاداً للعلماء والشعراء والأدباء، رغم كل ما يحيط بدولته من اضطرابات وقلاقل، ولكن لا عجب، فقد كان المعتمد نفسه عالما واديباً وشاعراً، محباً للعلماء، يدنيهم من مجلسه، ويكرمهم بالأعطيات والجوائز، وكان عبد الله ابن محمد بن العربي (والد القاضي) أحد وجوه العلماء وكبار الأعيان في دولة المعتمد بن عباد. كما كان خاله أبو القاسم الحسن بن أبي حفص الهوزني يحتل مكانة علمية رفيعة في المجتمع الأندلسي.

ومن هنا لم يكن عجباً أن ينشأ أبو بكر بن العربي في هذه البيئة الكريمة العزيزة محباً للعلم مقبلاً على طلبه بكليته.

من خلال هذه البيئة أطل ابن العربي على الدنيا في سني حياته الأولى، وعلى هذين

الرجلين الفاضلين ـ أبيه وخاله ـ تلقى ثقافته الأولى، وكان له فوق ذلك أستاذ خاص هو العالم الفاضل: أبو عبد الله السرقسطي.

وقد اعانت هؤلاء الثلاثة على مهمتهم في تكوين شخصية ابن العربي صفات ومـواهب أكرمه الله بها منذ صغره، من الذكاء والفطنة، وسعة المدارك، ودماثة الخلق، مما يتحلى به هذا الناشىء الذي قال في ذكر حداثته: حـذقت القرآن وأنا ابن تسع سنين، ثم ثلاثاً لضبط القرآن والعربية والحساب، فبلغت ست عشرة سنة وقد قرأت من أحرف القرآن ـ أي وجوه قراءاته ـ نحواً من عشرة، بما يتبعها من إظهار وإدغام ونحوهما، وتمرنت في الغـريب والشعر واللغة».

شهد أبو بكر بن العربي سقوط دولة بني

عباد وقيام الدولة المرابطية في إشبيلية سنة (٤٨٥هـ ـ ١٠٩٢)، وربما كان ذلك بعض ما هيأ الله من أسباب نبوغ ابن العربي، فقد اضطر والده إلى مغادرة إشبيلية انذاك، لأنه كان أحد أركان دولة بني عباد، وربما كانت رحلته عنها لقصد الحج كما تشير بعض المصادر، وأياً كان السبب، فإن هذه الرحلة أثرت تجارب ابن العربي، وأتاحت له طلب العلم في آفاق العالم الإسلامي، وكانت من هنا طرفا من اسباب ما وهب الله ابن العربي من علم ومعرفة وفضل.

كان بدء الرحلة وعمر ابن العربي لا يتجاوز السابعة عشرة وقد استمرت فترة غيابه عن موطنه الأول (إشبيلية) أكثر من سبع سنين، حيث رجع ـ بعد وفاة أبيه ـ فوصلها سنة

(٤٩٣هـ - ١٠٩٩ م)، وكان الحكم فيها لم يزل ليوسف بن تاشفين، واستقبل العلماء ورجال الثقافة والفكر والأدب في إشبيلية وما جاورها من عواصم الأندلس هذا الغائب القادم بعلوم المشرق استقبالاً لا نظير له، وقصده طلاب العلم من كل حدب وصوب، وتحول منزله إلى جامعة يؤمها الناس، وعقدت له حلقات الدرس في مساجد إشبيلية العامرة.

* * *

الفصل الثاني

الجانب العلمي في حياة ابن العربي

- ١ -

باستثناء ما تلقاه أبو بكر بن العربي من العلم في نشأته الأولى عن أبيه وخاله، وأستاذه الخاص أبي عبد الله السرقسطي، ارتبط طلب العلم في حياته بالرحلة في أطراف العالم الإسلامي، الذي كان يزخر بالعلم والعلماء على عهد ابن العربي، رغم ما كان يجتاح دوله من قلاقل واضطرابات وثورات، وكانت بغداد

والقاهرة ودمشق وفاس وقرطبة وإشبيلية وبخارى وسمرقند عواصم إسلامية عامرة بالمدارس العلمية والمساجد ـ التي كانت تقوم بدور الجامعات اليوم.

وكان الانتقال من بلد يعني إثراء التجربة الحياتية، واللقاء بأئمة العلم والفكر والثقافة في هذا البلد وذاك، ولهذا كانت الرحلة في طلب العلم دأب هذه الأمة منذ تاريخها الأول، رغم ما يلقاه المرء في ذلك من المتاعب والمشاقّ والعقبات والمخاطر أحياناً، ولعل السبب الوجيه في الارتحال لطلب العلم اختصاص هذه الأمة في العلوم النقلية التي تتلقى عن الشيوخ مباشرة بأسانيدهم المتصلة الى أعلام القرن الأول، الذين انتشروا في البلاد وشرّقوا وغرّبوا مع الفتوحات الإسلامية.

ولم تنشط أمة من الأمم للرحلة في طلب العلم كما نشطت الأمة المسلمة، وتاريخها حافل بالنماذج البشرية الفريدة، التي ضربت الأمثال في التضحية ونكران الذات، والدأب والجدّ في هذا الميدان.

ولا مراء في أن أبا بكر بن العربي، أحد هذه النماذج المشرقة في تاريخ امتنا الاسلامية، وقد كان الارتحال في حياة هذا العلم الشامخ سبباً من أسباب تكوين شخصيته والذي يبدو لنا أن أباه كان يتعمد له ذلك، ندرك هذا من ملازمته له خلال رحلته الطويلة التي استمرت أكثر من سبع سنوات كانت هي سنوات شبابه الأول، فصادفت أخصب فترة في حياته، ولا يخفى أثر ذلك في تكوين شخصية كل إنسان.

ولما كانت هذه الرحلة هي الحدث البارز

في حياة إبن العربي، فقد رأينا أن نتحدث عنها هنا، نظراً لعلاقتها الوثيقة بالجانب العلمي في حياة القاضي أبي بكر بن العربي.

* * *

- ٢ -

كان خروجهم من إشبيليه صبيحة يوم الأحد، مستهلَّ ربيع الأول من سنة (٤٨٥هـ - ١٠٧٦م) حيث ركبوا البحر قاصدين شمال إفريقية، فكان أول نزولهم في (بجاية) على ساحل بلاد الجزائر، وكانت (بجاية) مرفأ تلتقي عنده الطرق على البحر الأبيض بين المغرب والأندلس.

وأقـامت أسـرة ابن الـعـربي مـدّة في (بجاية)، حيث تتلمذ فيها على كبير علمائها: الامام أبي عبد الله الكلاعي وغيره، ثم ركبوا مشرّقين الى (المهدية)، وفيها أخذ ابن العربي العلم عن أبي الحسن الخولاني المقرىء، فكان يحضر عليه كتابه المسمى بـ (الاشارة) وغيره من تآليف هذا العالم الجليل ـ كما يذكـر ابن العربي نفسه ـ وفي المهدية أيضاً تلقى ابن العربي العلم على الامام أبي عبد الله المازري التميمي.

ثم رحلوا عن المهدية قاصدين السواحل المصرية، وقد أصابهم في ذلك بلاء وعناء، إذ هـاج البحر عليهم وتعـرّضوا للمخـاطر، ثم أنقـذهم الله فخرجـوا منه خـروج الميت من القبـر ـ كما يقـول ابن العربي ـ وعنـدما نـزلـوا بالديـار المصريـة أواخر سنـة (٤٨٥هـ) كان

الحكم فيها للمستنصر بالله حفيد الحاكم بأمر الله الفاطمي.

وفي الديار المصرية أيـامذاك لم يكن من اليسير ان يتلقى ابن العربي العلم عن أئمتها وعلمائها لقلة ظهورهم، حتى إنه كان يذهب الى القرافة الصغـرى، قريبـاً من قبر الامـام الشـافعي ليلقى فيهـا شيخه مُسنِد مصـــر: القـاضي أبـا الحسن الخلعي، وقـد لقي ابن العربي في مصر غير هذا الإمام أئمة آخـرين منهم أبو الحسن بن شرف، ومهدي الورّاق، وأبو الحسن بن داود الفارسي، ولم يلبث في مصر طويلاً.

من مصر واصل ابن العربي رحلته مع أبيه الى (بيت المقدس)، حيث لقي فيها الامـام الرحالة أبا بكر الطرطوشي الفهري، من كبار

علماء المالكية الأندلسيين، وكان قد خرج من الأندلس الى المشرق، وطاف البلاد ثم استقرّ في بيت المقدس، ولكنه خرج بعد ذلك الى الاسكندرية، وفيها أخذ عنه ابن العربي كثيراً أثناء عودته من رحلته هذه الى موطنه إشبيلية.

ولقي ابن العربي في بيت المقدس أيضاً ابن الكازروني الذي يحدثنا عنه قائلاً: إنه كان يأوي الى المسجد الأقصى، وكان يقرأ في مهد عيسى (أي في بيت لحم) فيسمع من الطور، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئاً دون قراءته إلا الإصغاء اليه. وفي حديث ابن العربي ما يشير صراحة الى أنه مكث ثلاث سنوات في بيت المقدس يتلقى عن هذا العالم الرباني.

وقد نقل المِقَّري في نفح الطيب عن ابن العربي قوله: شاهدت المائدة [التي أنزلها الله

على عيسى وأصحابه] بطور زيتا مراراً، وأكلت عليها ليلاً ونهاراً، وذكرت الله، سبحانه فيها سراً وجهاراً، وكانت صخرة صلداً لا تؤثر فيها المعاول، وكان الناس يقولون: مُسختْ صخرة!... والذي عندي أنها صخرة في الأصل، وقُطعت من الأرض محلاً للمائدة النازلة من السماء، وكل ما حولها حجارة مثلها، وكان ما حولها محفوفاً بقصور نحتت في ذلك الحجر الصلد، بيوت أبوابها منها ومجالسها منها مقطوعة فيها... وقد كنت أخلو فيها كثيراً للدرس...

بعد ثلاث سنوات من الإقامة في ربوع فلسطين وشرقي الأردن، ارتحل ابن العربي الى الديار الشامية، ونزل دمشق، فأقام فيها مدة، وأخذ العلم عن أئمتها، ومنهم شيخ الشافعية

الحافظ أبو الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي، والحافظ أبو محمد هبة الله الأكفاني، وأبو الفضل أحمد بن الفرات من أكابر علماء الشيعة، ولقي ابن العربي في الديار الشامية أبا سعيد الرُّهاوي، وأبا القاسم القدسي وأبا سعيد الزنجاني.

ومن عجائب ما ذكره ابن العربي عن عمران دمشق في ذلك العصر، وتقدّمها في أسباب الرفاه ما نقله عنه المقّري في نفح الطيب، من أنه دعي لتناول الطعام في بيوت بعض الأكابر، فرأى نهراً جارياً الى موضع جلوسهم، ثم يتجه عائداً الى ناحية اخرى، قال: فلم أفهم معنى ذلك، الى أن جاءت موائد الطعام في النهر المقبل جارياً باتجاهنا، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا، فلما فرغنا

من الطعام، ألقى الخدم الأواني في النهر الراجع، فذهب بها الماء الى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم من تلك الناحية، فأدركت السر، وإن هذا لعجيب.



- ٣ -

خرج إبن العربي من دمشق ميمماً وجهه شطر (بغداد) عاصمة الخلافة العباسية، وكانت بغداد يومذاك من أرقى مدن العالم على الإطلاق ، وكانت ملتقى العلماء والأدباء والشعراء، عامرة بالمدارس والمساجد، وكان الخليفة أول مقدم ابن العربي الى بغداد هو المقتدي بالله ، وكان على جانب من الدين والخير

والفضل، قوي النفس، عالي الهمة من نجباء بني العباس، وقد ظهرت في أيامه آثار حسنة وخيرات كثيرة، ومن مآثره أنه نفى المغنّيات والماجنات عن بغداد، وأمر بالمحافظة على الحرمات وصيانتها، ثم بويع بعده للمستظهر بالله، وكان مهذّباً مثقفاً ضليعاً في الأدب، إلا أن أيامه شهدت اضطراباً كثيراً، وقد عاصر ابن العربي هذين الخليفتين العباسيين أثناء إقامته في بغداد دار الخلافة.

والذي نود الإشارة اليه هنا أن ابن العربي كوّن في بغداد ثقافته الحقيقية لطول مقامه بها وكثرة شيوخه فيها، حيث تلقى العلوم حتى برع في الحديث والأسانيد وأصول الدين وأصول الفقه وعلوم العربية والآداب، وبذلك تبلورت شخصيته العلمية في بغداد، ووضحت ملامحها

في صورتها النهائية، التي جعلت من ابن العربي علماً شامخاً من أعلام علماء الاسلام.

تلقى أبو بكر ابن العربي العلم في بغداد على أئمتها وشيوخ العلم فيها، وممن أخذ عنهم وتتلمذ لهم: أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي المعروف بابن الطيوري، وكان محدّثاً صحيح الأصول واسع العلم، وأبو الحسن علي بن الحسين البزاز، وأبو المعالي ثابت ابن بندار البقال المقرىء، والقاضي أبو البركات العاقولي الحنبلي، وفخر الاسلام أبو بكر الشاشي الشافعي، الذي كان يلقب بالجنيد لورعه ودينه، وهو الذي انتهت اليه رياسة الشافعية في بغداد، وكان ابن العربي شديد الإعجاب به لترفعه عن العصبية المذهبية وجنوحه الى الحق والخير حيث كانا.

ومن الذين تتلمذ لهم ابن العربي وأخذ عنهم في بغداد: الحافظ أبو عامر بن سعدون الميورقي، وكان من فقهاء مذهب داود الظاهري، وقد ذكر ابن العربي أنه أنبلُ من لقيه ببغداد، وأخذ عن أبي الحسين اليوسفي، وعن شيخ بغداد في الأدب: أبي زكريا التبريزي، وأبي محمد جعفر السراج الحنبلي، وعن أبي بكر بن طرخان الشافعي وأخذ عن مُسند العراق، نقيب النقباء أبي الفوارس طراد بن محمد الزينبي، وكان أعلى الناس منزلة عند الخليفة، كما ذكر ابن العربي.

وكثيراً ما كان ابن العربي يتردد على مجالس العلم العامة، التي كانت تُعقد في دار الوزير عميد الدولة أبي منصور بن جهير، وكان مجلسه ملتقى العلماء من كل مشرب ومذهب.

وفي بغداد لقي أبو بكر بن العربي محمد بن عبد الله بن تومرت المغربي المصمودي، الذي عُرف بعد ذلك بالمهدي، وكان له اليد الطولى في هدم ملك الدولة المرابطية وإقامة دولة الموحدين في المغرب والأندلس على يد مؤسسها عبد المؤمن بن علي.

وفي بغداد لقي ابنُ العربي حجة الاسلام أبا حامد الغزالي، وأخذ عنه في مجالسه العامة، ثم لقيه مرة اخرى بعد ذلك في صحراء الشام عندما كان الغزالي متزهداً معتزلاً في تلك البرية، وهو الذي كان يراه في بغداد يدرّس فيحضر درسه المئات من أكابر العلماء أفاضل الناس يأخذون عنه العلم، فدنا منه فسلم عليه وقال له: يا إمام!... أليس تدريس العلم ببغداد خيراً من هذا؟... فنظر اليه الامام

الغزالي شزراً وقال: لما طلع بدر السعادة في سماء الارادة... وجنحت شمس الوصول في مغارب الأصول:

تركتُ هوى ليلى وسعدى بمنزل
وعدت الى تصحيح أول منزلِ
ونادت بي الأشواق: مهلاً.. فهذه
منازل من تهوى.. رويدك فانزل

غزلتُ لهم غزلاً دقيقاً ولم أجد
لغزلي نسّاجاً... فكسّرت مغزلي

ولئن طالعنا في كتابات ابن العربي ومؤلفاته تلك النفحات الصوفية العالية.. فلا بد أن نذكر أثر الامام الغزالي في حياته، ولا عجب فقد كان يرى فيه ضالته المنشودة.

نقل المقّري في نفح الطيب عن (قانون التأويل) لابن العربي قال: ورد علينا الغزالي فنزل برباط أبي سعيد، بإزاء المدرسة النظامية، معرضاً عن الدنيا، مقبلاً على الله تعالى، فمشينا اليه، وعرضنا امنيتنا عليه، وقلت له: أنت ضالتنا التي كنا ننشد، وإمامنا الذي به نسترشد. فلقينا لقاء المعرفة... وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة...

أثناء إقامة ابن العربي في بغداد حجّ هو وأبوه في موسم سنة (٤٨٩هـ - ١٠٩٥م)، وأخذ في مكة عن مفتيها ومحدّثها أبي عبد الله الحسين ابن علي الطبري الشافعي، ولا بد من الاشارة هنا الى قول ابن العربي عن مقامه تلك الأيام في مكة المكرمة:

كنت بمكة مقيماً في ذي الحجة سنة

(٤٨٩هـ)، وكنت أشرب من ماء زمزم كثيراً، وكلما شربته نويت به العلم والايمان، ففتح الله لي ببركته في المقدار الذي يسره لي من العلم، ونسيت أن أشربه للعمل، ويا ليتني شربته لهما، حتى يفتح الله لي فيهما، ولم يقدر، فكان صغوي [مَيْلي] للعلم أكثر منه للعمل.

وعاد ابن العربي الى بغداد بعد ذلك، فأقام فيها نحو سنتين، ثم ارتحل عنها الى الاسكندرية مروراً بدمشق وبيت المقدس، وفي الاسكندرية كانت وفاة أبيه سنة (٤٩٢هـ - ١٠٩٨م) ودفن في الثغر الاسكندري، وكان الامام أبو بكر الطرطوشي في تلك المدة قد نزل الاسكندرية واستوطنها، وكثر فيها تلاميذه ومريدوه. وقد كان ابن العربي التقى بأبي بكر الطرطوشي وأخذ عنه في

بيت المقدس قبل هذا اللقاء في الاسكندرية، حيث التزمه ابن العربي فيها فترةً، ثم رحل عن الاسكندرية آيباً الى موطنه (إشبيلية) في سنة (٤٩٣هـ - ١٠٩٩م)، ويؤخذ من نصوص الحافظ ابن عساكر في ترجمة ابن العربي انه بدأ التأليف، عندما غرّب من الاسكندرية، وكان أول مؤلفاته كتابه (عارضة الأحوذي) شرح صحيح الترمذي.

بعد هذه الرحلة الطويلة، آب أبو بكر بن العربي الى الاندلس، ورجع الى مسقط رأسه (إشبيلية)، وكان الحكم لا يزال لأمير المرابطين يوسف بن تاشفين، واستقبل الناس ابن العربي في إشبيلية استقبالاً حافلاً، وقصده طلاب العلم، حتى استحالت داره جامعة، بكل ما لهذه الكلمة من دلالات علمية في ذلك العصر.

الفصل الثالث

ابن العربي: آثاره ومآثره

- ١ -

كانت أوبة القاضي أبي بكر بن العربي إلى الأندلس، واستقراره في بلده (إشبيلية) ابتداء لمرحلة جديدة من حياته الحافلة بالسعي والدأب، ألا وهي مرحلة العطاء، بعدما طوف بالبلاد، وتلقى العلم على أفذاذ العصر وأئمته الاعلام.

وفي إشبيلية أخذ العلم عن ابن العربي من

لا يُحصى كثرة، ومن أجلّ تلاميذه: القاضي عياض، صاحب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى)، وابن بشكوال المؤرخ المحدّث الأندلسي، وأبو بكر بن خير الاشبيلي، وأبو جعفر بن الباذش، وأبو القاسم الحوفي، وأبو الحسن بن نعمة وأبو القاسم بن حبيش والامام السهيلي، وآخر من حدّث عنه بالسماع أبو بكر ابن حسون، وبالإجازة أبو الحسن الغافقي السقوري. قال صاحب شجرة النور الزكية في ترجمة القاضي أبي بكر بن العربي:

وبقي يُفتى أربعين سنة، وله تآليف تدل على غزارة علمه وفضله، منها: عارضة الأحوذي في شرح الترمذي، والقبس في شرح موطأ مالك بن أنس، وترتيب المسالك في شرح موطأ مالك، وأحكام القرآن، وناسخ القرآن

ومنسوخه، وقانون التأويل، ومراقي الزلف، وكتاب الخلافيات، وكتاب المريدين، وكتاب مشكل الكتاب والسنة، وكتاب النيرين في الصحيحين، والمتوسط في معرفة صحة الاعتقاد وسراج المهتدين، والأمل الأقصى في أسماء الله الحسنى، وتبيين الصحيح في تعيين الذبيح، والعقل الأكبر للقلب الأصغر، والرد على من خالف السنة من ذوي البدع والالحاد، والانصاف في مسائل الخلاف، وشرح حديث جابر رضي الله عنه في الشفاعة، والعواصم من القواصم، وشرح غريب الرسالة، والمحصول في علم الأصول، وترتيب الرحلة للترغيب في الملّة، وفيه من الفوائد ما لا يوصف.

قلت: ولابن العربي كتب أخرى مثل شرح المتوسط (في الاعتقاد)، ذكره تلميذه أبو بكر

ابن خير في (فهرسة ما رواه عن شيوخه)، ومنها كتاب سماه ابن خير: مصافحة البخاري ومسلم، قال: وهي ستة أحاديث

وبما ذكره ابن خير الاشبيلي كذلك: الأحاديث السباعيات، قال: حدثني بها شيخنا القاضي أبو بكر بن العربي مؤلفه رحمه الله قراءة مني عليه.

والأحاديث المسلسلات، قال: لابن العربي أيضاً، حدثني بها رضي الله عنه قراءة مني عليه في المسجد الجامع بإشبيلية ـ عمره الله بالاسلام ـ بين المغرب والعشاء، والعيديات منها في يوم عيد الأضحى.

ومنها فهرسة شيوخه قال ابن خير: حدثني بها سماعاً مني عليه.

من خلال هذا الاستعراض العاجل لكتب القاضي ابن العربي وآثاره، يمكن إدراك حجم العطاء الذي أعطاه هذا الامام الجليل لأمة الاسلام، ومن عرف تلاميذه الذين غدوا من أبرز علماء الأمة، أمكن أن يعرف أي عالمٍ كان أبو بكرِ بن العربي.

* * *

- ٢ -

قالوا في أبي بكر بن العربي: كانت من أهل التفنّن في العلوم، متقدماً في المعارف كلّها، متكلماً في أنواعها، حريصاً على نشرها، استُقضي بمدينة (إشبيلية)، فقام بها أجمل قيام، وكان من أهل السرابة في الحق، والشدّة والقوة على الظالمين، والرفق بالمساكين، ثم صُرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم

وبثّه ومما ذكره أبو جعفر بن الزبير في (صلته) قوله في ترجمة القاضي أبي بكر بن العربي:

. . . وقيّد الحديث، وضبط ما روى، واتسع في الرواية، وتقن مسائل الخلاف، والأصول والكلام، على أئمة هذا الشأن، وكان من أهل الشورى في إشبيلية، ودرّس الفقه والأصول، وجلس للوعظ والتفسير، وصنّف في غير فنّ تصانيف مليحة حسنة مفيدة، وولي القضاء مدّة، أولها رجب من سنة (٥٣٨هـ) فنفع الله به لصرامته، ونفوذ أحكامه، والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى أوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله، فأحسن الصبر على ذلك كله. . . وكان فصيحاً، حافظاً، أديباً، شاعراً ، كثير المُلَح، مليح المجلس، ثم قال: القاضي عياض بن موسى اليحصبي:

ولكثرة حديثه وأخباره، وغريب حكايـاته ورواياته، أكثر الناس فيه الكلام، وطعنوا في حديثه.

أخيراً نختم ترجمة هذا العلم الشامخ من أعلام الاسلام بقصة وفاته التي أحاطت بهـا ملابسات لم يزل كثير منها غامضـاً. الى يوم الناس هذا.

قال النباهي في تاريخ قضاة الاندلس نقلاً عن ابن الزبير:

توفي القاضي أبو بكر بن العربي منصرفه من مرّاكش، من الوجهة التي توجه منها مع أهل بلده الى الحضرة [أي الى حضـرة أمير المـوحدين عبـد المؤمن بن عـلي]، فحبسـوه بمراكش نحو عام، ثم سرّحوه فأدركتـه منيته بطريقه، على مقربة من (فاس) بمرحلة، وحُمل

ميتاً الى مدينة (فاس) فدفن بها بباب الجيسة، قال:

والصحيح في القاضي أبي بكر أنه إنما دفن خارج باب المحروق من (فاس)، وما وقع من دفنه بباب الجيسة، وهم من الزبير وغلط، وقد زرناه وشاهدنا قبره بحيث ذكرناه أرضاه الله وغفر لنا وله.



إقــرأ
في الحلقة التالية
الأمير
عبد الرحمن الداخل

الأمير

عبد الرحمن الداخل

أعلام من المغرب والأندلس

٦

الأمير

عبد الرّحمن الدّاخل

تأليف

سيف الدين الكاتب

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦ - ٢٧٥٥٣٢ - ٢٧٥٥٦٣ - ٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ٥٠١٥/١٣ بيروت - لبنان

الفصل الأول

- ١ -

الدولة الأموية في المشرق

إن فهمَ تاريخ الأمم والحضارات التي سادت .. ثم بادت.. لا يستدعي دراسةً فلسفية ميتافيزيقية .. تطلعُ علينا ببعض النبوءات الراجمة بالغيب .. بقدر ما يستدعي اليقظة الفطرية، السوية.. والتدبُّر في سنةِ الله تعالى الذي قال في محكم كتابه :

﴿ وإذا أردنـا أن نُهلك قـريـةً أمـرنـا مترفيها.. ففسَقوا فيها.. فحقَّ عليها القولُ.. فدّمرناها تـدميراً﴾..

إن التاريخ لا يحتاجُ إلى فلسفةٍ بقدر ما يحتـاج إلى تفسـيرٍ.. يلقي الأضـواءَ عـلى الأحداث.. لا يطمسها بالتأويلات الباطلة التي يستحيل التاريخُ عندها ظلماتٍ بعضُها فوق بعض.. وقد قال القرآن كلمةَ الفصل في هذا بجملة من العبارات الواضحة السوية.. حتى غدا التاريخُ بين يديك صفحةً تطالعهـا بيُسرٍ وسهـولـةٍ بعيـداً عن تهـويـل القصّـاصـين.. وشعـوذات المنجمين الراجين بالغيب بغير علم ولا معرفة!..

ومن خلال المنظور الإسلامي هذا.. يمكن لمطالع تاريخ الدولة الأموية أن يحكم مسبقـاً

بقرب انهيارها.. لما يرى من خللٍ تسرّبَ إلى كيانها منذ أيامها الأولى..

إن معاوية بن أبي سفيان قد وضع أول حجر في قبر الدولة الأموية.. يوم أقام بناءها على ذلك النحو الوراثيِّ المقيت.. الذي عطل أروع مبادىء الإسلام خلوداً وعدلاً وسياسة.. ألا وهو مبدأ الشورى.. الذي سادَ سياسة العهد النبوي والراشدي.. ثمَّ مدَّ الحماة بماءٍ إقامةُ مروان بن الحكم نظام البيعة لاثنين من أولاده يلي أحدهما الآخر..

وكان لهذه السياسة أثرها في تصدّع البناء الأموي.. فإنه لم يكد يتمُّ الأمر لأحد أبناء الخليفة المتوفّى.. حتى يعملَ على إقصاء أخيه من ولاية العهد.. وإحلال أحد أولادهِ

مكانه.. ومما زاد هذه الحالة سوءً أن هذا النزاع لم يقتصر على أفراد البيت الأموي.. بل لقد تعدّاهم إلى ولاتهم وقوّادهم وعمّالهم.. حتى إذا ولي خليفة انتقم من أنصار سلفهِ وأقصاهم عن مناصب الدولة.. فأثارت تلك السياسةُ بذور الشقاقِ بين أفراد البيت الأموي.. وكان هذا أول النذر بقرب السقوط..

ثم زاد الأمر خطورةً.. انغماسُ بعض خلفاء بني أميةِ في أتون اللهو والترفِ.. وإرهاقهم الرعية بالضرائب.. وانشغالهم عن مصالح الدولة بإثارة فتنٍ عصبيةٍ أو عقيديةٍ كان من أهم أسبابها ضعفُ الرشد الإسلامي في أولئك الخلفاء.. حتى روي عن بعضهم أنه كان يعاقر الخمور ويقيمُ مجالس الطرب واللهو والغناء..

وهكذا وجدت الثوراتُ المعارضةُ مبرراتٍ كثيرةً لتقويض بناء الدولة الأموية. حتى شهد عصرها الذي لم يدُم مائةَ سنة عشرات الثورات التي أنهكت الأمـويـين.. ثم لم تكفَّ عن مناوأتهم حتى أسقطت دولتهم في المشرق سنة (١٣٢ هـ ـ ٧٤٩ م).

وأنت إذا ذهبت تطالع آراء المؤرخين في العـوامل التي يعـزون انهيار الـدولـة الأمـويـة إليها.. ألفيتهم جميعاً يـدندنـون حول هذه العوامل السبعة:

١ ـ تعطيل مبدأ الشورى ثم إعطاء ولاية العهد لاكثر من واحدٍ، وما ترتَّب على ذلك من إثارة للبغضاء، وانقسام للآراء بين أفراد الأسرة الحاكمة..

٢ ـ تعصب الأمويين المفرط للعنصر العربي، واضطهاد الموالي سياسياً واجتماعياً وضرائبياً.. الأمر الذي أثار روح التمرد طلباً للإنصاف والمساواة.. حتى لقد خرج الموالي مع كل خارجٍ على الدولة.. إلى أن كانت الثورة العباسية التي شكلت هذه الطبقة المستضعفة دوراً بارزاً فيها..

٣ ـ عودة ظهور روح العصبية بين القبائل، ومسؤولية الأمويين عن إثارة هذا الصراع بين القبائل.. الذي نخر في جسم الدولة، وأتى على تماسكها ووحدتها..

٤ ـ ظهور الطبقية بين صفوف العرب أنفسهم.

٥ ـ ظهور الأحزاب السياسية والدينية المعارضة، التي أنكرت حقَّ بني أمية في

الحكم، وكـانت أحـزابُ الشيعـة أبـرز هـذه الأحزاب وأكثـرَهانشاطاً، ثم فرق الخوارج التي ناصبت الأمويين العداء منذ قيام دولتهم وحتى سقوطها.. ثم كانت ثمة أحزاب أخرى.

٦ ـ انغماس عدد من الخلفاء في حياة اللهو والمجون، وإهمالهم لشؤون الـدولة.. في وقت كانت طبيعة الانتشار في الآفاق.. وفتح مشارق الأرض ومغاربها.. كانت طبيعة هذه المرحلة تستدعي قيام قـادة يتّسمون بصفاتٍ مثالية.. فكانت الصفاتُ الخُلُقية لبعض الخلفاء سبباً في انتشار التذمّـر في صفوف النـاس.. وجعلهم يميلون إلى الاستجابة للدعوات التي ينادي بها قادةٌ يتمتعون بسمعة مثالية حسنة..

٧ ـ أخيراً.. فإنّ اتساع رقعة الفتـح في

العهد الأموي.. وعجز الإدارة المركزية فيها عن تطوير نفسها إلى درجة تستطيع بها كفكفة جبروت وفردية حكام الأقاليم، ثم عجزها عن ملاحقة مشاكل المجتمع ورصدها وتوفير الحلول الناجعة لها.. والمقدرة على تنفيذ مناهج الإصلاح بشكل مستمر.. يضاف إلى ذلك كله: التطور الاقتصادي الذي أتخم خزائن الأمويين.. ووضع أيديهم على أراضٍ وممتلكاتٍ أعادت للناس عهود أكاسرة الفرس وقياصرة الروم..

لعل هذه أهم العوامل التي يرى المؤرخون أنها تضافرت على إضعاف الدولة الأموية.. فانهارت بعدما حكمت نحواً من تسعين سنةً.. رغم ما أتيح لها من مقومات الديمومة.. من

سعة الرقعة وضخامة الموارد.. لكن عدم استقرار النظام المالي، وانتهاج سياسة إقليمية ضيقة، واستئثار طبقة صغيرة بخيرات البلاد.. عجّل كل ذلك في سقوط دولة حكمت بقاعاً شاسعةً من القارات الثلاثة: آسية وإفريقية وأوربة.. وكان سقوطها نهايةً لمدّ التوسع السياسي الإسلامي.. إلا أنه كان ـ في الوقت نفسه ـ بداية لمدّ جديد: ثقافي وحضاري وعقائدي..

يقول ابن عِذاري المرّاكشي في (البيان المغرب):

جميع خلفاء بني أمية في المشرق من لدُن (معاوية) إلى آخرهم: أربعةَ عشرَ رجلاً، وكانت مدة دولتهم إحدى وتسعين سنةً وتسعة

أشهر وخمسة أيام.. ثم تفرّقت بنو أمية في البلاد هرباً بأنفسهم.

وهرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى الأندلس، فبايعه أهلها وتجددت بها لهم دولةٌ استمرّت إلى بعد (٤٢٤ هـ)، والناس يعتقدون أن دولتهم كانت انقطعت من حين قتل مروان بن محمد (الجعدي)، إلى أن جدّدها عبد الرحمن بن معاوية المعروف بعبدالرحمن الداخل سنة (١٣٦ هـ) أو نحوها، وقيل إنها كانت متصلة، لم تنقطع من زمن عثمان رضي الله عنه إلى زمن المعتدّ بالله بقرطبة آخر خلفائهم سنة ٤٢٤ هـ. وهذا القول ينبني على ما قاله بعضهم: إن عهد عبد الرحمن بن حبيب الفهري صاحب إفريقية من قِبَل بني أمية وصل

إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري المتغلّب على الأندلس، الذي دخل عبد الرحمن بن معاوية وهو أميرها..



- ٢ -

الأندلس قبيل دخول عبد الرحمن

كان حلم موسى بن نصير فاتح الأندلس . . أن يتوغل في الفتح الإسلامي حتى يخترق أوربا ويصل الى القسطنطينية. . ولكن أحلامه اصطدمت بعوائق ليس آخرها أوامرُ الخليفة الذي خشي أن يمخر المسلمون بحراً لا يُعرف له قرار. . لبُعده عن مركز الخلافة. .

وصعوبة تأمين الأمداد للجيوش الإسلامية التي أوشكت أن تقرع أبواب فرنسا..

وهكذا أُجهض حلمُ موسى بن نصير.. ولم تتعدّ فتوحُ الإسلام جبالَ البرانس.. إلى أن ولي عمرُ بنُ عبد العزيز الخلافة.. فولّى على بلاد الأندلس السمح بنَ مالك الخولانيّ (١٠٠ ـ ١٠٢ هـ = ٧١٨ ـ ٧٢٠ م)، فجدّد عهد الفتوح واخترق جبال البرانس.. وزحف على مقاطعتي (سبتمانيا) و (بروفانس)، ثم أغار على (أوكيتانيا) وكانت مقاطعة مستقلة جنوبي نهر اللوار، وحاصر تولوز (طلوشة)، فقابلهُ دوق (أوكيتانيا) بجيش كبير، ونشبت بين الفريقين معركة عظيمة قُتِلَ فيها السمحُ الخولاني وأكثر جنوده، فتولى عبد الرحمن الغافقي قيادة الجند، وانسحب بفلول جيشه إلى

مدينة (تربونة) الأندلسية، في خطة ذكية أنقذ بها بقية الجيش.

وفي سنة (١٠٣ هـ ـ ٧٢١ م) تولى على بلاد الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي من قِبلَ والي إفريقية، فعاد إلى غـزو بلاد (غـالة) واستـولى على (سبتمـانيا)، ووصل إلى مـدينة (ليون) الفرنسية واستولى عليها.. ولكنه قتل أثناء عودته سنة (١٠٧ هـ ـ ٧٢٥ م) مما اضطر العرب إلى التقهقر إلى (تربونة) من جديد.

ووقف تيار الفتح أربع سنين بسبب قيام الاضطرابات الداخلية في الأندلس، إلى أن تولّى حكم هذه البلاد الأمير عبد الرحمن الغافقي، من قِبَل عبيد الله بن الحبحاب عامل إفريقية في عهد هشام بن عبد الملك، فوطّـد النظام في

أرجاء البلاد وأصلح ما أصاب الجيش والإدارة من خلل.. ومن ثم تفرّغ للقتال والفتح في بلاد (غالة).. فخرج في ثمانية آلاف رجل.. واستولى عل إمارة (أوكيتانيا)..

ولكن دوق أوكيتانيا استعان بالفرنجة، فجمع (شارل مارتل) جيشاً ضخماً لقي به الفاتحين المسلمين على مقربة من (بواتييه).. حيث دارت بينهم الموقعة المشهورة بمعركة بلاط الشهداء، أو موقعة (تور).

وكانت الغنائمُ التي أصابها المسلمون في أوكيتانيا من الكثرة بحيث خشي عبد الرحمن الغافقي أن تشغل الجند.. وتعطل حركات الجيش. وبعد مناوشات دامت ثمانية أيام دارت رحى القتال إلى أن غابت الشمس.. وفي اليوم

التالي هجم المسلمون على العدو، وكاد النصر يتم لهم، لولا ما أُشيع من أن العدوَّ استولى على ما خلّفوه من غنائم.. فبادر الجند لحمايتها، ووقع الاضطراب في صفوفهم.. وأصيب عبد الرحمن الغافقي بسهم أودى بحياته.. واضطر المسلمون إلى الانسحاب في ظلام الليل دون أن يشعر بهم الفرنجة المسيحيون.. ولم يتعقب (شارل مارتل) فلول جيش المسلمين.. خشية أن يكون الانسحاب تدبيراً للإيقاع به وبجيشه.

وتعتبر موقعة (بلاط الشهداء) من المواقع الحاسمة في التاريخ.. إذ لو تمَّ فيها النصر للمسلمين.. لانتشر الإسلام في أوربا كلها..

ولم يحاول العرب الاستيلاء على بلاد الفرنجة بعد هذه الموقعة.. ولكنهم أخذوا

يتراجعون إلى بلاد الأندلس.. وعصفت بهم رياح العصبية القبلية التي لم تلبث أن ظهرت في شكل صراع بين الشاميين والحجازيين.. وبين العرب والبربر.. بل بين العرب أنفسهم من يمانية ومُضرية.. حتى أصبح بعضُ المسلمين يستعين بالفرنجة على المسلمين الذين تربط بهم أواصر الدين والعقيدة.. ورأى الفرنجة تغلّب المسلمين على بلاد الأندلس.. فهالهم هذا الأمر.. وعملوا على مناوأتهم وإخراجهم من البلاد.. وربما كان لهم يدٌ في إضرام نار الفتنة الداخلية بين الفئات الإسلامية.. حتى قام النزاع بين العرب والبربر.. وما كاد شرُّ البربر يزول من الأندلس حتى قام النزاعُ بين المضرية واليمانية.. ،

فقد تولى بلاد الأندلس رجل يقال له (أبو

الخطّار) وذلك سنة (١٢٥ هـ ـ ٧٤٢ م) وكان يمانياً. . فقام في وجهه الصميل بن حاتم ـ وكان مُضَرياً ـ واستطاع أن يخلعَهُ ويولّي رجلاً غيره. . ولكن هذا الوالي الجديد ـ أو الثائر بعبارة أدقّ ـ توفي بعد سنتين، فأرادت اليمانية أعادة (أبي الخطّار). . وامتنعت المضرية ورأسهم (الصميل). . وافترقت الكلمة. . فأقامت الأندلس أربعة أشهرٍ بغير أمير. . فلما تفاقم الأمر اتفق رأيهم على تولية رجل من أحفاد الفاتح (عقبة بن نافع) هو يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري. . فوليها يوسف ـ وكان مضرياً ـ سنة (١٢٩ هـ ـ ٧٤٦ م) فاستقر الأمر على أن يقوم بشؤون الأندلس لمدة سنةٍ واحدة، ثم يردّ الأمر إلى (اليمانية) فيولون من أحبوا منهم . .

ولما انقضت السنة أقبلت العربُ اليمانية يريدون أن يولّوا رجلاً منهم.. فقام الصميل في وجههم واقتتلوا.. فاجتمع الناس على يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ولم يعترضه أحد.. ويقي يوسف على الأندلس إلى أن جاء عبد الرحمن ابن معاوية (الداخل) فغلب على الأندلس.. وأقام من جديد دولة أموية عُدّت استمراراً للدولة الأموية التي سقطت تحت سنابك خيل العباسيين سنة (١٣٢ هـ - ٧٤٩ م).

* * *

الفصل الثاني

- ١ -

من الطفولة إلى دخول الاندلس

كان هشام بن عبد الملك مقيماً بـ(الرصافة).. حيث اتخذ قصر خلافته على نهر الفرات هناك.. مؤثراً الابتعاد عن عاصمة الخلافة الأموية (دمشق) بعدما غدت مسرحاً للفتن الداخلية.. ولكنه كان يتردد عليها لزيارة

أبنائه ـ وبخاصة (معاوية) الذي كان يحبه حباً جمّاً. . حتى لقد عهِدَ إليه بالخلافة من بعده. .

وما كان لهشام أن يعلمَ أن الدهر سيفجعه بأحب أبنائه إليه. . حتى لقد اعتصم بقصره في الرصافة ـ بعدما بلغه نعي ابنه (معاوية). . فكان لا يأذن لأحدٍ بالدخول عليه. . حتى ولو كان أخاه (مسلمة بن عبد الملك). . هذا الأموي المشغول عن الخلافة وأعبائها بعلم الفلك والنجوم. . يتنبأ بالمصائر، ويتحسس الأقدار. . وقد أحبه بنو أمية جميعاً وعرفوا فيه ميلَهُ لمطالعة الغيوب. . ومن هنا كان مسلمة من أقرب المقرّبين من الخليفة. . لاطمئنانه إلى عدم اكتراثه بالخلافة وطمعه فيها. .

ولكن أيترك (مسلمة) أخاه (هشاماً) منطوياً

عـلى ذاته، معتصـماً في قصره يتجـرّع الحزن والكآبة؟!.. إنه ليعلم مدى شوق الخليفة إلى رؤية أحفاده الأيتام..

وكتب مسلمة إلى دمشق طالباً من زوجة (معـاويـة).. أن تحمـل أولادهـا وتـأتي إلى الرصافة.. وبعد أيام كانت (رداح) تدخل قصر الخليفة يحفّ بها أبناؤها وكلهم أطفال صغار.. فلما أن رآهم الخليفة سُرَّ بهِمْ وجعَل يضمهم إليه ويقبلهم أسفاً على أبيهم الذي كان يُعدّه لحمل أعباء الخلافة من بعـده.. ولكن بقاء هؤلاء الأيتام بقربه يسرّي عنه كثيراً من حزنه وهمّه.. فليقيموا في قصر جدهم.. وليمرحوا في مغاني الرصافة الجميلة..

وجاء مسلمة بنُ عبد الملك يشهد قصـر

الخلافة وقد عادت الحياةُ إليهِ بمقدِم أبناء معاوية ابن هشام . . ووقف يتفرّسُ فيهم ملياً . . فأثار فيه كبيرهم عبد الرحمن شعوراً غامضاً . . فجعل يتأمله طويلاً . . ثم همس في أذن الخليفة :

ـ إنه هو ! . . أجل والله هو عبد الرحمن . . هذا الطفل الأموي النجيب . . لقد انتهى أمر بني أمية . . وعبد الرحمن وحده هو الأمل . . ومعقد الرجاء . .

وسمع عبد الرحمن بعض همسات عمّ أبيه مسلمة بن عبد الملك . . ولكنه لم يفهم شيئاً على وجه الدقة . . وإن كان الزهو قد أخذه . لمجرد شعوره أنه حديث الخليفة وأخيه . وهما أعظم رجلين في بني أمية يومذاك . .

ولم يخفَ على عبد الرحمن سبب اهتمام

جده به.. وعنايته أوفى عناية بعد ذلك.. حتى كان يحسن تدريبه وتعليمه على فنون القتال.. وكأنه يُعدّه لأمر خطير.. ومستقبل عظيم.. مما أثار فضول الغلام النابه عبد الرحمن.. فأخذ يتحسس الأمر حتى عرف بنبوءة عم أبيه مسلمة ابن عبد الملك.. والتي كان يقول فيها: إنّ ملك بني أمية آيلٌ إلى الزوال في المشرق.. لكنه سيبعث في المغرب على يد رجل صاحب صفات خاصة.. كان مسلمة يراها كلها في عبد الرحمن ابن معاوية..

ونحن وإن كنا نرى أثر الصنعة بادياً على هذه القصة برمّتها.. إلا أن ذلك لا يمنع من القول بأصل لتلك النبوءة الراجمة بالغيب.. والذي يهمنا من ذلك أثر هذه النبوءة في حياة عبد الرحمن هذا..

قال ابن عِذاري المرّاكشي في البيان المغرب (٤١/٢) :

«حدّث عبد الرحمن بن معاوية قال: دخل مسلمة بن عبد الملك على جدي هشام يوماً.. فوجدني عنده ـ وأنا صبي ـ فأمرَ جدّي بإخراجي عنه.. فقال له مسلمة :

ـ دعه يا أمير المؤمنين، فإنه صاحب بني أمية.. ومحيي دولتهم بعد زوالها..

فلم أزل أعرفُ لي مزيةً من جدّي بعد ذلك!..»

والذي حدث.. أن عبد الرحمن اختفى مع بعض أفراد أسرته في إحدى القرى القريبة من نهر الفرات.. خوفاً من البطش العباسي، وعمليات الإبادة الشاملة التي مارسها العباسيون

(أو المسوّدة كما يسميهم ابن خلدون لأن ألويتهم كانت سوداء) ضد أفراد الأسرة الأموية منذ سقوط دولتهم في المشرق سنة (١٣٢ هـ ـ ٧٤٩ م) وقيام الدولة العباسية..

وفي أحد الأيام فوجىء عبد الرحمن بثلّةٍ من الجند العباسيين يقتحمون القرية التي كان متخفياً فيها.. فهرب منهم مع أخٍ صغير له.. وألقيا بنفسيهما في (الفرات). فاجتازه عبد الرحمن سباحةً.. بينما عجز أخوه عن المتابعة فرجع إلى الشاطىء.. حيث أمسك به الجند العباسيون فذبحوه من فورهم..

وأفلت عبد الرحمن.. فهرب من هناك إلى فلسطين.. حيث لحق به هناك مولاه (بدر) الذي زوده ببعض المال والجواهر التي بعثت بها

إليه أخته (ام الأصبغ).. ومن فلسطين توجه عبد الرحمن إلى مصـر.. فاجتـازها إلى بـرقة متوجهاً إلى المغرب..

كان المغرب إلى ذلك الحين مستقلاً عن السلطة العباسية.. وكانت أموره بيد عبد الرحمن بن حبيب الفهري ـ أحد أحفاد عقبة بن نافع ـ وقد استولى على أمور المغرب استيلاءً.. فرحّب ابن حبيب بعبد الرحمن بن معاوية.. وساعده على بلوغ مرامه..

وفي الأندلس كان ابنه يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري ممسكاً بزمام الأمور يعاونه الصميل بن حاتم.. فبعث الأموي الهاربُ مولاه (بدراً) إلى الأندلس للاتصال بالصميل.. حيث عرض عليه بدر أن يعاونه على تسلم الحكم في الأندلس.. وإحياء الخلافة

الأموية بعد سقوطها في المشرق.. واستجاب الصميل في أول الأمر.. ثم وجده صعب المرام فاعتذر.. وانقطع رجاء (بدر) في قبائل قيس (المضرية) وزعيمها الصميل.. فتحول إلى القبائل اليمانية التي كانت تعاني من القهر والتحكم القيسي.. فألفاهم قوماً قد أوغر القهر صدورهم.. فهم يتمنون سبيلاً لطلب ثأرهم..

واستطاع (بدر) أن يجمع قبائل اليمانية على تأييد عبد الرحمن بن معاوية.. لدخول الأندلس وإقامة حكم أموي فيه.. وأعدت العدة لذلك ورتبت كافة الأمور.. ثم رجع بدر إلى سيده عبد الرحمن ومعه بعض رجال ومركب خاص ليعبر به مضيق جبل طارق إلى الأندلس..

كان عبد الـرحمن بن معاويـة في المغرب ينتقل من قبيلة إلى أخرى.. ومن بلد إلى آخر حتى استقـرّ به المقـام في (سبتة) حيث تقيم قبيلة (نفزة) البربرية.. التي منها أمه (رداح).. والتي سبيت قبـل ذلك أيـام الفتوح.. وقـد امتدت إقامة عبد الرحمن بن معاوية متنقلاً في إفريقية والمغرب نحواً من خمس سنوات..

* * *

- ٢ -

صقر قريش

لقد نجحت جهود (بدر)، وأعدت العدة لعبور عبد الرحمن بن معاويـة إلى الأدلس.. ينتظره خمسمائة رجل من أنصاره هناك.. على رأسهم زعيم يقال له عبيد الله بن عثمان..

ويبدو أن نشاط بـدر والاستعدادات التي تمّت من أجل عبور عبد الرحمن إلى الأندلس لم تكن سرّاً.. وإن يكن وقت العبور قد أحيط

بسرّية تامة.. قال ابن عذاري المراكشي:

«وفي سنة (١٣٨ هـ ـ ٧٥٥ م) دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس في غرّة ربيع الأول.. وكان خروجه من المركب بموضع يُعرف بالمنكَّب، ثم نزل بقرية (طُرُّش) من كورة (إلبيرة).. فأقبل إليه جماعة من [أنصار] الأمويين، وقد أُعِدَّ للأمير ما يصلحه من المركب والمنزل والملبس.. فاشتد أمرُ ابنِ معاوية، وأقبل الناس من كل مكان إليه، فكتب يوسف الفهريُّ إلى جماعة الأمويين يحذّرهم ويخوّفهم.. فقالوا له:

ـ إنما أقبلَ ابنُ معاوية إلينا وإلى جماعة مواليهِ.. يريد المالَ.. ليس فيما يظنُّ الأمير ـ أصلحه الله ـ ولا فيما رُفِع إليه..

واعتذروا له بما أمكنهم.. وأقبل وجوه الناس إلى ابن معاوية، وقالوا له:

- خفنا مكر الصميل، ولم نأمَنْ غائلته فعرَّفْنا الفهري بكذا كذا.

وكان ابن معاوية يبيتُ في الجبال».

ثم انتقل عبد الرحمن بن معاوية من (إلبيرة) إلى كورة (ريّة) فدخلها في ستمائة فارس. فتلقاه الناس بالبشر والترحيب، وخرج منها في ألفَيْ فارس إلى (شذونة) ثم إلى (مورور) ثم إلى كورة (إشبيلية).. والناس يتلقونه ويعطونه من الطاعة والانقياد أوفى نصيب.

وخرج ابن معاوية من إشبيلية في ثلاثة آلاف فارس، فلما اجتمعت له الجموع، وبلغَهُ

ما يريد الفهريُّ من الخروج اليه.. كتّب الكتائب، وعبّأ الأجنادَ وخرج إليه.. ودعا برجل من الأنصار فعقد لواءه، وارتحل في جنوده حتى احتلّ بقرية على نهر قرطبة يوم الإثنين لستّ خلون من ذي الحجة (١٣٨ هـ - ٧٥٦ م).

وخرج يوسف الفهري إلى (المُصارة).. وأقام الجيشان ثلاثة أيام متناظِرَيْنْ والنهر حاجزٌ بينهما بمائه.. ثم أصبح النهر يوم الخميس وقد حُسِرَ ماؤه.. فعبّأ الأمير عبد الرحمن كتائبه، وتهيأ للحرب.. فقدّم على قبائل العرب واحداً من قوّاده، وعلى البربر كذلك وهو إبراهيم بن شجرة.. وترجّل حُماة بني أمية، فحفّوا بالأمير حتى جاوز بهم النهر، واقترب من (المصارة)..

وجرت بينه وبين يوسف الفهري مكاتبة طول النهار، راجياً عقد الصلح.. غير أن ذلك لم يُجدِ نفعاً.. والتقى الجيشان يوم الجمعة، واشتد بينهم القتال.. ثم انهزم الفهري وأصحابه، ولما استقبل قصره ردّه عنه رجل يقال له عبد الأعلى ابن عوسجة.. فولّى منهزماً إلى سفح جبل قرطبة.. واستولى عبد الرحمن بن معاوية ذلك اليوم على الملك.. وتمّت له بيعة العامة بقرطبة.. وتمادى يوسف الفهري في الفرار إلى (إلبيرة)..

وفي سنة (١٣٩ هـ - ٧٥٦ م) خرج ابن معاوية طالباً للفهريّ وقائده (الصميل بن حاتم) ففرّ الفهري إلى (غرناطة) متحصّناً بها.. فحاصره عبد الرحمن بن معاوية.. حتى إذا

تمادى به الحصار طلب الفهريُّ الأمان.. فأعطاه ذلك.. ودخل الفهري في عسكر الأمير كأحد رجاله.. ولكنه ما لبث أن هرب سنة (١٤١هـ ـ ٧٥٨ م) من قرطبة ناكثاً للعهد.. فاجتمع إليه بعض الناس حتى بلغ جمعهم عشرين ألفاً من البربر وغيرهم.. فلما بلغ ابنَ معاوية خبرُهم سار إليهِ ووقعت بين الجيشين حرب شديدة، فانهزم يوسف، وتفرّقَ أصحابه عنه، ثم تمكن منه بعضهم فاغتاله سنة (١٤٢ هـ ـ ٨٥٩ م) واحتزّ رأسه ليتقدم به إلى عبد الرحمن بن معاوية.. وكان مقتل الفهري في طليطلة.

* * *

لا شك أن انسلاخ بلاد الأندلس قد فتَّ في عضُد الدولة العباسية، ولم يتمكن أبو جعفر

المنصور العباسيُّ من إعادة سلطان العباسيين إلى هذه البلاد.. فعملَ على استمالة عبد الرحمن ابن معاوية، وأرسل إليه الرسل، وكثيراً ما كان يُظهر إعجابَهُ بهِ وبمقدرته، وبعزيمته التي جعلته ـ وهو شريد مطاردٌ ـ يستطيع أن يؤسسَ هذا الملك الواسع في تلك البلاد البعيدة.

وقد ذكر المؤرخون ومنهم ابن عبد ربه في العقد الفريد: أن أبا جعفر المنصور قال لأصحابه: أخبروني عن صقر قريش من هو؟!.. قالوا:

ـ يا أمير المؤمنين!.. هو الذي راضَ المُلْك وسكّن الزلازل، وحسم الأدواء وأباد الأعداء..

ـ قال: إنكم لم تصنعوا شيئاً!..

ـ قالوا: فهو معاوية الأول ؟!..

ـ قال : لا ليس هو !..

ـ قالوا : فعبد الملك بن مروان !..

ـ قال : ولا هذا !..

ـ قالوا: فمن يكون إذن يا أمير المؤمنين؟!..

ـ قال: هو عبد الرحمن بن معاوية.. الذي عبر البحر، وقطع القَفْر.. ودخل بلداً أعجمياً وهو مفرد.. فمصَّرَ الأمصار، وجنّد الأجنادَ.. ودوّن الدواوينَ.. وأقام ملكاً بعد انقطاعه.. بحسن تدبيره وشدة شكيمته..

وكثيراً ما كان أبو جعفر المنصور يشيد بذكر عبد الرحمن الداخل ويعدله بنفسه.. وقد جاء عنه في نفح الطيب للمقّري كلمات أخرى غير

التي نقلناها عن العقد الفريد، يذكر فيها ابنَ معاوية ويشيد بهمته وعزيمته وفضله.. ولعل ذلك كان ضمن سياسة كان أبو جعفر قد تبناها أول أمره. ثم لما لم يظفر بشيء من وراء تلك السياسة التمس مساعدة (ببين) ملك الفرنجة لإخضاع عبد الرحمن بن معاوية للسلطة العباسية.. ولكن ذلك لم يُجدِهِ نفعاً.. إلا أنه أيقظ في نفس صقر قريش الخوف من هجوم الفرنجة على بلاده.. فلم يحاول إظهار عدائه الحربي للخليفة العباسي..

لذلك نرى المنصور وإن كان لم ينجح في القضاء على عبد الرحمن الداخل حربياً.. إلا أنه نجح إلى حد بعيدٍ في الناحية السياسية.. ووضع أساس هذه السياسة التي سار عليها أبناؤه من بعده..

وكانت الدول تهاب الدولة الإسلامية في عهد المهدي العباسي لعظمتها وقوة سلطانها، إلا ما كان بين العباسيين والأمويين في الأندلس.. فقد كان المهدي العباسي يضمر العداء لعبد الرحمن الداخل.. ويود إزالة دولته.. ولكنه كان يُحجم عن تجريد الجيوش إلى بلاده.. لبُعد الشقّة ووعورة الطريق.. وإتعاب جنده بالمسير في صحراء إفريقية.. وقوة عبد الرحمن الداخل.. الذي فكر في انتزاع بلاد الشام من العباسيين لولا أن الحالة الداخلية في بلاده.. تطلبت العدول عن تحقيق هذه السياسة.. أضف إلى ذلك تربّص الفرنجة بالبلاد الأندلسية.. وتحيّنهم أدنى فرصة للانقضاض عليها واستلابها من أيدي المسلمين.. ومن هنا فقد كان للفرنجة يدٌ طولى

في إضرام نار الفتنة الداخلية كلما أوشكت أن تهدأ.. ليُنهكوا بها الدولة ويشغلوها عن أي تفكير في النهوض من جديد لتسيير جيوش الفتح إلى بلاد الفرنجة..

واستقر عبد الرحمن الداخل بقرطبة.. وبنى بها القصر والمسجد الجامع.. وأثَّل بها ذلك المُلكَ العظيم.. وجدّد ما طُمِسَ لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها.. وكان عبد الرحمن ينظر في المظالم بنفسه، وينصف الضعيف من القوي.. وكان إذا جاء وقت الطعام دعا إلى مائدته أصحابه ومن قصده من أهل الحاجات. كما يذكر المقّري في (نفح الطيب).

وأختم حديثي هذا عن صقر قريش بنقل طرف من ترجمته في (البيان المغرب) لابن عذاري المرّاكشي.. يقول:

«نسبه: عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبـد الملك بن مروان بن الحكَم بن أبي العاص بن أمية. كان يكنى: أبا المطرّف..

أمه : بربـرية من سبي المغـرب، تُسمّى راحاً أو رداحاً، وفي عبد شمس بن عبد مناف يلتقي نسبه بنسب رسول الله (ص) .

مولده : بمـوضع يُعـرف بديـر حسنة من دمشق سنة ١١٣هـ ، مات أبوه وتركه صغير السنّ.

وفاته : يوم الثلاثاء لستّ بقين من ربيع الآخر، وقيل لعشر خلون من جمادى الأولى سنة ١٧٢ هـ ، ودُفِن بقصر قرطبة وقد بلغ تسعاً وخمسين، وقيل ستين سنة، فكانت مدة خلافته ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر ونصفاً، ودخل

الأندلس وهو ابن خمس وعشرين سنة. بويع له بقرطبة يوم الأضحى من سنة ١٣٨ هـ».

خلّف عبد الرحمن بنُ معاوية من الأولاد عشرين، منهم أحد عشر ذكراً وتسع إناث، وعاصر من الخلفاء العباسيين: المنصور والمهدي والهادي والرشيد.

* * *

إقــرأ

في الحلقة التالية من هذه السلسلة

الإمام

محمد بن حزم

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦-٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧-ص.ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت - لبنان

الإمام

أبو محمد بن حزم

أعلام من المغرب والأندلس

٧

الإمام
أبو محمد بن حزم

تأليف
سيف الدين الكاتب

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦ - ٢٧٥٥٣٢ - ٢٧٥٥٦٣ - ٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت - لبنان

الفصل الأول

ابن حزم: عصره ونشأته

ربما أجمع مؤرخو الحضارة على أن القرن الهجري الرابع.. كان هو عصر النهضة الإسلامية.. بما شهد من تطورات وتحولات بلغت بها الحضارة والعلوم والفنون شأوها وذروتها..

ولكن من ذا الذي ينكر أنَّ هذا العصر الذهبي، قد شهِد رغم ذلك أخطر ألوان التفسخ؛ متمثلاً في اقتسام العالم الإسلامي تحت

ألوية ثلاث خلافات إسلامية، قامت جميعاً في عصر واحد.. فالخلافة العباسية في العراق، والخلافة الفاطمية في المغرب ـ ثم في مصر ـ والخلافة الأموية الجديدة في بلاد الأندلس..

وإن كان أحد لم ينكر كذلك أن بغداد والمهدية ـ ثم القاهرة ـ وقرطبة.. كانت هي عواصم الدنيا.. ومراكز الإشعاع الحضاري، بكل ما تنطوي عليه العبارة من أبعادٍ ودلالات في ذلك العصر الذهبي من عصور الإسلام..

ولعل للتنافس الذي قام بين مراكز الخلافات الثلاث.. دوراً في ذلك التطور؛ وفي هذا الازدهار!.. لأنّ كلاًّ منها كان يحاول إثبات جدارته بالخلافة الإسلامية.. وقدرته على القيام بأعبائها ومسؤولياتها حق القيام!..

ولكن من ذا الذي يستطيع أن يزعم بأن الحضارة الإسلامية.. هي حضارة قصر الخلافة بجواريه وخصيانه ومغنيه وراقصاته.. أو بذهبه وفضته.. أو حتى بمنجزاته الهزيلة إلى جانب ما أهدر من حقوق الخالق والخلق؟!..

إن بريق العصر الذهبي لم يكن ليُخفيَ عن أنظار الباحثين المدققين.. ما أصاب المجتمع الإسلامي من صدأ وتفسخ.. من جرّاء هذا التشتت بين مراكز الخلافة.. وإن شئت فقل: هذا التصارع الذي انعكس على الأمة المغلوبة حيرةً وتمزّقاً.. وتطرّفاً أحياناً!..

إن تلك النهضة كانت ترتبط بأفراد بأعيانهم.. ومن هنا فإذا أتيح للإمارة الرجل الشديد الكفؤ سارت الأمور سيرة الدولة القوية

المتماسكة. . ثم إذا تولى بعده أمير آخر. . لم يـوهب شـدة الأول وصـلابتـه وشخصيتـه. . انكفـأت أعمـدة النهضـة التي شيـدهـا الأول بأخلاقه وسيرته. . تحت مطارق ضعف الآخر وهزال شخصيته ، وعدم جدارته بالإمارة . . أو جدارتها به. .

وكانت هذه هي أزمة الحكم الديكتاتوري المركزي. . التي ورطت البلاد والعباد. . وحملت في طيات النهضة أسباب انهيار تلك النهضـة وسقوطها على صعيد السلطة والسياسة. . وربما أفرزت في الوقت نفسه. . ومن خلال أتـون تلك التناقضات المروّعة بعض العبقريات الفذة ـ وإن تكن متطرفة ـ أحياناً ـ على صعيد الفكر والثقافة. .

ولأن الفكر هو الذي يحفظ لنا كل الانعكاسات.. فقد وعت ثقافة العصر كل تناقضاته ومشكلاته وأزماته..

ولأن رجل الفكر شاهد العصر الذي أوتي حساسية زائدة ـ هي المؤشر الصادق على نهضة العصر أو انحطاطه ـ فإن ظهور التطرف يصبح نتيجة عادية لاضطراب العصر بكل تلك التناقضات والمفارقات.. وقد يتّسم ذلك التطرّف بكثير من الحدة؛ مشفوعة بكثير من الفطنة والذكاء المتوقد.. ولن يكون ذلك كله غير وثيقة تدين أئمة الحكم وأرباب الفكر وأعمدة العصر جميعاً.. وتتهم كلاًّ باقتحام مجالٍ لم تتوفر له أهلية اقتحامه.. وهي الإدانة التي لا يمكن أن تصدر عن معاصر.. إلاَّ أن تكون

حياته وطمأنينته وأمنه واستقراره هي ثمن الوفاق للإدلاء بها على الملأ...

وفي ذلك العصر من عصور الإسلام.. كان رجل واحد في طول البلاد وعرضها يجرؤ على توجيه إصبع الاتهام إلى أعمدة عصره جميعاً.. رجل واحد كان اسمه ابن حزم.. وإذا لم يصدق تماماً قول المثل «لكل مسمّى من اسمه نصيب».. فإنّ اقتران اسم هذا الرجل بمنجزاته وجهوده ومواقفه، يقوم دليلاً على صدق هذا المثل السائر...

* * *

في أواخر القرن الهجري الرابع كانت ولادته سنة (٣٨٤ هـ ـ ٩٩٤ م) في قرطبة.. حاضرة الدولة الأموية الجديدة بالأندلس..

وفيها نشأ في كنف أبوين كريمين قد أتيح لهما من أسباب الحياة المترفة كل شيء!..

كـان أبوه وزيـراً للخليفة الأمـوي هشام المؤيـد. وكـانت لــه ثروة ضخمــة وجـاه وسلطان.. فترك منازل الآباء في غربي قرطبة ـ حيث يقطن أوساط الناس ـ واتخذ لنفسه قصراً منيفاً في «حي السادة»، شرقي قرطبـة، على مقربة من دار الخلافة...

نشأ ابن حزم في قصر أبيه.. فتفتحت عيناه منذ حداثته عـلى لونـين متناقضـين من الجمال. جمال الطبيعة الذي استأسر الأندلس بقسط وافر منه دون سائر بلاد الأرض.. فثمة ما شئت من مغاني الحسن، ومرائي الجمال.. وحدائق غناء يضوع منها العبق سخياً سخاء

تلك البقعة المباركة من أرض الله.. وطيور تصدح .ومياه تنساب متدفقة في كل مكان.. إنه عرس من أعراس الطبيعة الدائمة..

وفي مقابل ذلك الجمال.. تفتحت عينا ابن حزم على ضرب آخر من الجمال.. بين جنبات قصر الأب الوزير.. مغنيات وراقصات.. وجوارٍ شقراوات وسمراوات.. إنه معرض من معارض الفتنة.. التي تزعم أنها ذهبت تنافس جمال الطبيعة في عرسها الدائم!..

هنالك نشأ ابن حزم.. وهنالك تلقى ثقافته وعلومه الأولى!..

ولأن أباه كان خبيراً بما آلت إليه الحياة من فساد وتفسخ.. لم يشأ أن يعهد به إلى معلمين

من الرجال.. واختار له معلمات من النساء..
وكانت نساء قرطبة فيهن فقيهات وشاعرات
ومقرئات وراويات وطبيبات وعالمات بالفلك
والفلسفة...

لقد تربى وتثقف في حجور النساء..
ولازمهنّ حتى بلغ مرحلة الشباب الأول.. وقد
أتاح له لزومهنّ معرفة الكثير من أحوالهن
وأسرارهنّ.. مما سترى آثاره في كثير من آرائه
وكتابته بعد ذلك..

وعندما بلغ ابن حزم سنّ البلوغ.. كان
يصبو إلى مثل أعلى.. يشعل له شمعة في
غياهب تلك الظلمات التي اكتنفته.. وكان قد
حفظ القرآن والحديث والشعر.. ونار الصبا
تتأجج فيه.. ومجتمع النساء لم يعد يرضي

غروره.. إنه يستشرف إلى أسوة حسنة تخرجه من الصراع النفسي الذي ينتابه.

واختار له أبوه عالماً زاهداً فاضلاً.. ليتابع ابن حزم تعليمه على يديه.. فرأى فيه مثال العالم العامل، والعابد التقي الورع.. يقول أبو محمد بن حزم:

«فنفعني الله به كثيراً، وعلمتُ مواضع الإساءة، وقبح المعاصي»..

إن هذا هو بيت القصيدة في نشأة ابن حزم!.. لقد كان يصبو إلى رجل قدوة.. يعرفه مواطن الزلل. ومواطن الرشاد.. فإن نفسه تصطرع فيها قوى الخير والشرّ.. وهو فتىً متوقد النوازع.. يكمن في داخله ضمير مؤمن.. يأمره بالخير ويحضه عليه.. ولكن في

محيطه مغريات تذلل أمامه طّريق الشيطان. .
وتهوّن عليه غشيان الملذات. .

ولم يلبث شيـخ ابن حزم أن لقي وجـه ربه. . ووجد الفتى نفسه من جديد أمام المحنة والفتنة والإغراء. . وكان لا بد من محنة أشدَّ تغلّ الأولى وتخرج ابن حزم منها سليماً معافى. . معه من أسباب الهداية، نور الحكمة، وفاعلية التجربة. . .

وكأنها جاءت على قدر. . تلك المحنة التي شغلت نفس الفتى المرهف. . عن التفكـير في شيء من أسباب الهوى والغرام. . التي تعطل طاقات الشباب أكثر الأحيان!.

كان في الخامسة عشرة من عمره، عندما تمرّد على الخليفة (هشام المؤيد) أقرب الأمراء

إليـه، فسـاقـوا جيشـاً من العـرب والبـربـر والفرنجة، فأسقطوا الخليفة، وولّوا مكانه رجلاً آخر من بني أمية.. وعزل الحاكم الجديد والد ابن حزم من الوزارة، واعتقله، ثم أفرج عنه بعد حين.. ولكن عائلة ابن حزم ظلت في أتون المحنة.. بين الاعتقال والتغريب والإغرام إلى أن توفي عائلها (الوزير) سنة (٤٠٢ هـ - ١٠١١ م). يقـول ابن حـزم في وصف تلك المحنة التي مرت بها عائلته:

«ضـرب الدهـر ضربـاتـه، وأُجلينـا عن منازلنا، وتغلّب علينا جند البربر.. فخرجتُ عن قرطبة أول المحرم عام أربع وأربعمائة»...

رحـل ابن حزم إلى «المـرية» بعيـداً عن قرطبة - مسـرح الصراع السيـاسي - ليقيم في

إحدى ضِياع أبيه التي بقيت له.. وفي أعماقه ينزف قلب مشتت. وفي صدره لهفة إلى إنقاذ أمة الإسلام مما حلّ بها من هوان وتمزق وصراعات..

ولم يجد ابن حزم متنفساً لأحلامه إلا في العلم.. فانكب عليه يدرس العلوم الدينية والإنسانية جميعاً.. درس الفقه والحديث والقرآن.. وقرأ الكثير من الكتب المترجمة في الأدب، والفلسفة والفلك والرياضيات، ودرس الشعر العربي وأخبار الأمم وتواريخهم...

* * *

الفصل الثاني

- ١ -

من السياسة إلى الفقه

مكث ابن حزم في «المرية» نحواً من ثلاث سنوات، انقطع فيها للتلقي عن أجلّه العلماء، والقراءة في البيت.. فلما ظهر في «بلنسية» الأمير المرتضى، أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، ركب ابن حزم البحر إليه، لما كان فيه من أمارات الخير والصلاح، ومخايل التقوى وحسن الدين..

وبـايع ابنُ حـزم ذلك الأمـيرَ مؤملاً أن يستطيعا معاً إزالة الفساد الذي فشا في مجتمع الأندلس.. لبناء مجتمع جديد على أسس البـر والتقوى والعدل..

أقـام ابن حزم في «بلنسيـة» يـدعـو إلى المــرتضى، حتى اجتمــع لــه جيش يـصلح للزحف، وسار ابن حزم مع الجيش، تحت راية المرتضى، يريدون الاستيلاء على «غرناطة».. ولكن الجيش لم يصـل إلى غرنـاطة.. حيث اغتيل الأمير «المرتضى»، وهُزِم الجيش، وأُسر ابن حزم..

وعندما أطلق ابن حزم من الأسر، قرر أن يـرجـع إلى قـرطبـة، لينكبّ عـلى العلم من

جديد.. بعد ما غاب عن مسقط رأسه نحواً من ست سنوات..

إن هاجس السياسة كان يعاود ابن حزم، من حين لآخر، للصراع الذي كان يضطرم في داخله.. فقد طالما أرّقه ما آل إليه حال المسلمين من التشتت والتمزق، تحت وطأة حكام مترفين أو ضعفاء.. وعلماء عاجزين أوجبناء.. فلا بد من ثورة عارمة تجتاح السلطة المترفة والضعيفة، لتستبد بسلطة قوية واعية.. وتجتاح الفكر المنافق والعاجز،لتستبدله بفكر متفتح حرّ..

إن ابن حزم كان يعيش من جراء ذلك في صراع داخلي.. وكان كأنه يعاني من مخاض.. وهو يحمل في صدره هموم الناس ومعاناتهم..

لا بـد من ثورة شـاملة إذن. . تبعث تعاليم الإسلام ومبادئه ، التي طمستها سياسة الحكام المـركـزيـين ، ومنـاهـج العلماء التقليـديـين العاجزين. .

وفي قرطبة عكف ابن حزم خمس سنوات يدرس فقه داود الظاهري. . بعدما درس فقه الإمام مالك والإمام الشافعي قبل ذلك. . وتمر اعوام وابن حزم لا يشغله إلا الدرس المتواصل الجاد. . حتى يصرفه ذلك عن السياسة وهمومها ومشكـلاتهـا. . إلى أن يـظهـر هشـام المعتـد بالله ـ آخر خلفاء الأمويين بالأنـدلس ـ فيختار ابن حزم للوزارة. . ولكن الإمام الثائر ما يلبث أن يعتزل الوزارة، إذ تأكد له أن هذا الخليفة الهزيل لن يستطيع أن يحقق للدولة شيئاً ممـا

عاش ابن حزم يدعو إليه.. وبعد اعتزاله بقليل تسقط الخلافة الأموية في الأندلس، ثم لا تقوم لها بعد ذلك قائمة..

لقد تحقق لابن حزم أن السياسة أداة فاسدة للتعبير عن هموم العالم الذي يدعو إلى ثورة شاملة في نظام الحكم، ونظام المجتمع برمته...

وانتقل ابن حزم من قرطبة إلى ريف الأندلس، حيث كان له بعض الممتلكات التي قرر أن يتكسب عيشه من مردودها.. وهناك فوجىء بالظلم الواقع على كواهل العاملين والمزارعين البسطاء . من جراء استغلال المُلّاك لهم على نحو لم تسترح إليه نفس الإمام الفقيه. فأعلن في الملأ أن نظام الإيجار في

الأرض الزراعية حرام.. فقد جرت السنة على المزارعة.. يأخذ المالك نصف الإيراد أو ثلثيه أو ثلاثة أرباعه أو أقل من ذلك.. والباقي يحصل عليه الزارع.. هكذا فعل الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل خيبر، حيث زارعهم مناصفة.

ولم يكد الإمام يعلن رأيه، حتى قام في وجهه كبار الملّاك، وشايعهم الفقهاء الذين أجمعوا على أنه يحرّف في الدين، ويبتدع رأياً يخالف المذاهب الأربعة جميعاً..

وكانت تلك هي الشعرة التي قصمت ظهر البعير.. وقامت الحرب الفقهية بين ابن حزم ومعاصريه من العلماء... وذهب ابن حزم يناظرهم ويجادلهم بحدة لم تفتقر الى الكثير من

الحجج والبراهين.. ولكنهم أجمعوا على تطرّفه، ثم استطاعوا أن يوغروا عليه صدر الأمير.. فضيّق عليه، واقتطع أملاكه، وصادر بعض أراضيه.. مما اضطر ابن حزم إلى مغادرة الأندلس.. حيث نزل بالقيروان من أرض تونس...

واستقر المقام بابن حزم في المغرب سنوات، لم ينقطع خلالها عن الدرس والقراءة ومناظرة العلماء.. وكان أكثر ما يعيبونه عليه رفضه القياس وأدوات الرأي الأخرى في استنباط الأحكام.. وهو يعيب عليهم تقليد الأئمة في آراء ومسائل تخالف ظاهر نصوص القرآن والسنة.. ولكن نقده لهم كثيراً ما كان يتسم بطابع الحدّة التي لا تعرف الهوادة.. حتى

هاجم أتباع المذاهب ومقلدي الأئمة الكبار جميعاً وبكل صرامة..

* * *

- ٢ -

من الفقه إلى الأدب

عندما قامت الجفوة بينه وبين علماء المغرب.. قرر ابن حزم أن يعتكف، ويعتزل الناس.. وفي فترة اعتزاله تلك صنف ابن حزم كتباً أودع فيها آراءه الفقهية، ثم أنكب على قراءة المعارف اليونانية، وصنف بعد ذلك رسالة في «أسماء الله الحسنى» نالت رضى العلماء لما اتسمت به من عمق وأصالة وحجة مشفوعة بالحدة والعنف في الردّ على الفلاسفة والمتكلمين، حتى قال فيه أحد معاصريه:

« إن ابن حزم أوتي العلم كله، ولكنه لم يؤت سياسة العلم». .

وفي عزلته تلك. . كتب ابن حزم في الأدب. . فطلع على الناس بكتاب «طوق الحمامة في الألفة والألّاف»، وهو كتاب يصف أحوال المحبين، وأمارات الحب، وما يعرض فيه من وصل وهجر، واقتراف للمعصية أو تعفف عنها. .

ولعل ملابسات تأليف هذا الكتاب، ترجع إلى ما ذكره ابن حزم في مقدمة كتابه عن رسالة قد وصلت اليه وهو بالقيروان من صديق له في الأندلس، مرشح لمنصب الإمارة على إحدى مدائن الأندلس. . وهو يطلب فيها من ابن حزم أن يكف عن الكتابة في الفقه والأصول،

حتى تهدأ ثورة الناس عليه في الأندلس وغيرها.. وحتى يرتب له أمر عودة كريمة إلى وطنه.. واقترح الصديق في رسالته.. أن يكتب ابن حزم في الحب...

وتطالع «طوق الحمامة».. فتفاجأ بنمط الحياة الغريبة التي كان يحياها الأثرياء والأمراء من أهل الأندلس.. حتى يذهلك أن يلمّ إمام كابن حزم بكل تلك الأسرار عن الحياة الاجتماعية في الفردوس المفقود.. ولكن ليس لك أن تعجب إذا ذكرت نشأة هذا الإمام في حجور النساء، منذ طفولته الأولى إلى أن قارب سن الشباب...

وكتاب طوق الحمامة ـ كما يذكر عبد الرحمن الشرقاوي ـ ظاهرة فريدة في تاريخ

الأدب.. فما كتب أحد من فقهاء الإسلام أو علمائه كتاباً أو فصلاً، أو مقالاً في الحب، بمثل هذه الروعة أو الصراحة.. ولا بمثل هذا العمق في تحليل النفس الإنسانية..

وإليك ما كتبه الدكتورزكي مبارك في كتابه النفيس «النثر الفني» عن ابن حزم:

«كان الناس يعرفون عن ابن حزم أشياء قليلة من حياته الخاصة، ولم يعرف الجمهور أكثر من أنه كان أكبر علماء الأندلس في عصره، ومن أشهر أئمة الإسلام وأعرفهم بالمذاهب الفلسفية والدينية، التي تأصلت جذورها عند علماء المسلمين، وكتابه «الفِصَل في الملل والأهواء والنحل» كان ولا يزال من أهم المراجع لعلوم الفلسفة ومذاهب التوحيد.

«ويُعد ابن حزم أفصح كاتب عرفته اللغة العربية في الفقه والتشريع..

«ولكن تبين أخيراً أنه كان لذلك الإمام قلب خفاق.. وأنه حمل راية الحب في زمانه، واستُهدف على عظمته للقيل والقال.. وأول ما عُرف ذلك كان في دوائر المستشرقين، حين طُبع كتابه «طوق الحمامة» في ليدن عام ١٩١٤..

«وقد أحدث ذلك الكتاب رجّةً عنيفة جداً في أوربا، وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل.. وكان موجب تلك الضجة: أنه لم يثبت أن كتاباً أُلف في فن الحب قبل ذلك الكتاب، لا في اللغات القديمة ولا في اللغات الحديثة.. لأن أوربا في القرن العاشر الميلادي

ـ أي في عصر ابن حزم ـ كانت معارفها قليلة جداً في الشؤون الوجدانية.. فكان من المستظرف حقاً أن يكتشف الباحثون: أنه كان في ذلك العصر كاتب عربي، يتناول حديث الحب والعشق والهيام، في تفصيل شائق جذاب، هو آية الآيات في فهم أسرار الأهواء والشهوات والقلوب.. وذلك كله يقع من رجل كان إماماً من أئمة الدين، ومثالاً يُحتذى به في أدب النفس، وكرم الطبع، ومتانة الخُلُق»...

ويقول الدكتور زكي مبارك بعد استعراض أطراف من طوق الحمامة:

«وقد وصل ابن حزم إلى نتائج كثيرة من دراسته للحب والجمال، ففهمنا منه مثلاً: أن

الحسن يتلون وفاقاً لألفتنا له، وفي هذا يقول ابن حزم:

.. وإني لأعرف من كان في جِيد حبيبه بعض الوقص [أي قصر العنق]، فما استحسن أغيدَ ولا غيداء بعد ذلك، وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القِصَر، فما أحب طويلة بعد هذا»!..

«والظاهر أن ابن حزم كان يجد حرجاً من الكتابة في الحب، والحديث عن الجمال، وكان أهل زمانه يتهمونه بالميل إلى الإثم والفسوق، فجاء يقسم بالله أنه بريء الساحة:

حلفتُ فلم أترك لنفسكَ ريبةً

وليس وراء الله للمرء مذهبُ

«إن ابن حزم أقسم أنه لم يرتكب كبيرةً

منذ عقَلَ «والحر مؤتمن وإن لم يُقسم».. وهذا التصوّن من جانب ابن حزم هو سر عبقريته، فإن الجمال أعزّ وأمنع من أن يدرك أسراره من يسومونه الهوان حين يطمعون في "الدون" من ملذات الحياة..

«إنما مثل الجمال كمثل النور المشرق الوهاج لا ينبت في مواجهته إلاَّ أصحّاء العيون.. فلا يحسب قوم ـ يقول الدكتور مبارك ـ أننا نرتاب في عمى بصائرهم حين نراهم يستكثرون أن يشغل مثل ابن حزم بدرس أسرار الجمال»!..

وفي «طوق الحمامة» كلمات لابن حزم عن المرأة، يذكر لك من قصص وفائها وعفتها ما يجعلها في عينيك أجمل مخلوقات الله.. ثم يذكر

لك من حكايات فسقها وشذوذ طباعها ما ينفّرك من مجرد الحديث عنها.. ولكنه على أية حال يبدي ضعف ثقته بالنساء عموماً.. وإذا علل مظاهر الفساد الذي غشي المجتمع الأندلسي.. ذهب إلى أنّ اختلاط الرجال بالنساء بلا قيود.. وإظهار النساء زينتنّ وهن يعرضن للرجال... وفراغ بال النساء وأوقاتهن.. كل ذلك بعض أسباب الفساد الاجتماعي.. ومن هنا فإن ابن حزم يرى ضرورة شغل المرأة بما يعود عليها بالفائدة.. شغلها بالعلم أو العمل، لذلك يسوق النصيحة للرجال القوامين على النساء: بأن يسدّوا أمامهن ذرائع المعصية؛ من البطالة وحضور مجالس السمر، والانفراد بالرجال.. ويقول في ذلك:

«إن المرأة الصالحة إذا سدّت أمامها ذرائع الفساد ظلت على صلاحها، أما الفاسدة فإذا سدّت أمامها الذرائع، تحايلت عليها لتمارس الفساد»!..

إنك وأنت تطالع طوق الحمامة.. تحسّ أنك أمام عاشق من طراز فريد.. فهو يلفحك بصدق التجربة.. ولا يحرق مشاعرك باللذة الحرام.. إنها العفة في أسمى صورها.. وإنه الحب في أقدس معانيه.. وما ضرّ أن كان الكاتب عنه إماماً فقيهاً ومحدثاً حافظاً.. وعالماً من أجلة علماء الإسلام!..

* * *

- ٣ -

الأخلاق عند ابن حزم

كانت تجربة ابن حزم الجديدة.. التي ترجمها على صفحات «طوق الحمامة» مريرةً هي الأخرى.. وعلى الرغم من أنَّ ابن‌حزم كان يدرك ما يمكن أن يضج حوله من أصداء «طوق الحمامة»، فإنه أعلن أن الدافع لكتابة «الطوق»، إنما كان يرجع إلى سخطه على صور الفساد الاجتماعي، التي فشت في أمة الحق والعدل والخير...

وفي آخر الرسالة كتب ابن حزم فصلاً عن جزاء أهل الفساد، وما ينتظرهم من عذاب الله

في الآخرة، وما يجب أن يُعاقَبوا به في الدنيا، من نفي أو جلد أو رجم.. والغـريب في الأمر.. أن الفقهاء والعلماء من معاصريه لم يروا ذلك الوعظ والإرشاد شافعاً لابن حزم.. فهاجموه ووجّهوا إليه أصابع الاتهام رغم كل محاولاته في تجريد الموضوع من أي نزعة، يمكن أن تحسب عليه زلة من زلات العلماء.. وهكذا فقد اتُّهم ابن حزم بأنه يحرض الشباب على الفسق والفجور.. ويزعزع ثقتهم بأئمتهم وعلمائهم وصلحائهم...

كانت تجربة مريرة اضطرت ابن حزم إلى مغادرة المغرب.. للاعتكاف في جزيرة «ميورقة» الهادئة.. بعيداً عن معارك الفكر التي بدا من خلالها متطرفاً في كل شيء.. في فقهه واجتهاده وفي منهجه وسياسته وفي حبه وأدبه..

لقد خرج ابن حـزم من تجاربـه بعبرة، جعلها دستوره بعد ذلك حيث يقول:

«ليس في العـالم منـذ أن كـان، إلى أن يتناهى ، أحدٌ يستحسن الهمَّ، ولا يريد طرحه عن نفسه. . فلما استقر في نفسي هذا العلم الرفيع، وانكشف لي ذلك السرّ العجيب، وأنار الله لفكري هذا الكنز العظيم .. بحثتُ عن سبيل موصلة عـلى الحقيقة إلى طـرد الهمِّ. . الذي هوالمطلوب النفسي، فلم أجدها إلاَّ في التوجه إلى الله عزَّ وجلَّ بالعمل للآخرة»!. .

وترجم ابن حزم تجاربه في النفس والروح والأخـلاق عـلى صفحـات رسـالـة سمـّاهـا: «الأخلاق والسير في مـداواة النفوس». . وفي هذه الرسالة القيّمة. . تطالعـك شخصية ابن

حزم. . حكيماً بليغاً، وعابداً زاهداً. . ومسلماً فطِناً. . وناصحاً مخلصاً أميناً. . قد سبر أغوار النفس الإنسانية بنور الإيمان. . فعرف مواطن الضعف، ومكامن الزلل فيها. .

قال لرجل جاء يلتمس عنده حسن النصيحة:

«إحرص على أن توصف بسلامة الجانب، وتحفَّظْ من أن توصفَ بالدهاء. . فيكثر المتحفظون منك، حتى ربما أضرّ ذلك بك. . وربما قتلك»! . .

ولا يستغربن أحد أن ينصح ابنُ حزمٍ رجلاً بعد تجاربه المريرة فيقول:

« إياك ومخالفةَ الجليس. . ومعارضةَ أهل زمانك فيما لا يضرك في دنياك وأُخراك وإن

قلّ. . وربما أدى ذلك إلى الضرر العظيم دون منفعة أصلاً. . وإذا لم يكن بُدٌّ من إغضاب الناس، أو إغضاب الله عزَّ وجلَّ. . ولم يكن مندوحة عن منافرة الخلق، أو منافرة الخالق. . فأغضب الناس ونافِرهم ، ولا تغضِبْ ربك ولا تنافر الحقّ»!. .

إنها فراسة المؤمن. . وتجارب العالم الذي شغل عصره ردحاً من الزمن. . وإنها أخيراً نُظرة الحكيم الذي وضع يده على ادواء الأخلاق الفاسدة. . فاستفرغ جهده في مداواتها. . وإن لابن حزم بعد كل ذلك أن يضع أيدينا على العلة الكامنة في طوايا نفوسنا. . وإذا ردّ إلى «العُجب» كثيراً من الأمراض الاجتماعية الأخرى. . همس في آذان الناس ناصحاً في إخلاص وأمانة:

«من امتُحِنَ بالعُجب فليفكر في عيـوبه، فـإن أُعجَب بفضـائله، فليفتِّشْ مـا فيـه من الأخلاق الدنيئة!.. فإن خفيت عليـه عيوبـه جملةً حتى يظن أنه لا عيبَ فيه، فليعلمْ أن مصيبته إلى الأبد!.. وأنه أتمُّ الناس نقصاً، وأعظمهم عيوباً، وأضعفهم تمييزاً.. لأن العاقل هو من ميّز عيوب نفسه، فغـالبها وسعى في قمعهـا، والأحمق هـو الـذي يجهـل عيـوب نفسه»!..

إنها عصارة طيبة، أفرزتها هذه الشخصية الفذة، بعد طول التجربة وعمق المعاناة.. فإذا ابن حزم رائد من رواد علم النفس والاجتماع والأخلاق في الإسلام....

* * *

الفصل الثالث

عبقرية متكاملة

تبهـرك شخصية ابن حـزم، وأنت تتملّى ملامحها وأبعادها!.. وربمـا وقفت بعد طـول اللهاث وراءها حائراً.. لا تـدري ما تقـول فيها..

لقد عاش ابن حزم حياة سياسية، وأخرى علمية دينية.. وثالثة اجتمـاعية، كلهـا تتسم بطابع العمق والحماسة والتجـديد.. في أفق

عريض متسع الجنبات.. ومن خلال رحلته الشاقّة في الحياة.. والتي استمرت نحواً من سبعين سنة.. أثمرت عبقريته المتكاملة نحواً من أربعمائة مجلد.. قيل إنها تحتوي على قريب من ثمانين ورقة.. في شتى العلوم والمعارف!..

ويذكر المؤرخون أن معظم كتب ابن حزم قد أحرقت، ومعنى هذا أنه حدث عدوان على مكتبته ومراجِعهِ، شمل قدراً من مؤلفاته التي أكملها، أو شرَعَ فيها، ومع هذا فقد استنقذ له التاريخ بقايا من ذلك النشاط العلمي نسوق ما بدا منها للعلماء المحققين، وهو مقدار جليل بلا ريب:

١ ـ إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل.

٢ ـ الإجماع ومسائله على أبـواب الفقه، ذكره الحميدي وابن خلكان.

٣ ـ الإحكـام في أصول الأحكـام، وهـو مطبوع متداول.

٤ ـ الأخلاق والسير في مـداواة النفوس، طبع مراراً بأسماء مختلفة.

٥ ـ أسماء الخلفاء والولاة، طبع في ذيـل «جوامع السيرة» له.

٦ ـ أسماء الصحابة والرواة، طبع في ذيل «جوامع السيرة» أيضاً.

٧ ـ أسماء الله تعالى، قرَّظه الغزالي، وذكره المقري في نفح الطيب.

٨ ـ أصحاب الفتيا، طبع في ذيل جـوامع

السيرة.

٩ ـ إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل. طبع مضمناً في «الفِصَل».

١٠ ـ الإمامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها. ذكره ياقوت الحموي.

١١ ـ الإمامة والمفاضلة، مضمن في كتابه «الفِصَل».

١٢ ـ الإيصال إلى فهم الخصال، في أربعة وعشرين مجلداً. ذكره الذهبي وغيره.

١٣ ـ التقريب بحدّ المنطق والمدخل إليه، ذكره الحميدي والذهبي وابن خلكان.

١٤ ـ التلخيص والتخليص في المسائل النظرية وفروعها. ذكره المقري والذهبي.

١٥ ـ الجامع في صحيح الحديث. ذكره الذهبي وياقوت الحموي.

١٦ ـ جمل فتوح الإسلام، طبع في ذيل جوامع السيرة.

١٧ ـ جمهرة أنساب العرب، مطبوع.

١٨ ـ جوامع السيرة، مطبوع متداول.

١٩ ـ حجة الوداع، مطبوع متداول.

٢٠ ـ رسالة في فضل الأندلس، مطبوعة

٢١ ـ شرح أحاديث الموطأ، ذكره المقري والذهبي وياقوت.

٢٢ ـ الصادع والرادع على من كفّر أهل التأويل من فرق المسلمين. ذكرة الثلاثة.

٢٣ ـ طوق الحمامة، مطبوع متداول، لم يذكره من ترجموا لابن حزم، وقد كشف عنه المستشرق دوزي، وطبع لأول مرة في ليدن ١٩١٤. ثم أعيد طبعه.

٢٤ ـ الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل، مطبوع متداول.

٢٥ ـ القراءات المشهورة في الأمصار، طبع في ذيل جوامع السيرة.

٢٦ ـ كشف الالتباس، ما بين الظاهرية وأصحاب القياس، ذكره الذهبي وغيره.

٢٧ ـ المجلّى وشرحه المسمى «المحلّى بالآثار» مطبوع في ١١ مجلداً.

٢٨ ـ مراتب الإجماع، مطبوع متداول.

٢٩ ـ مسائل أصول الفقه، طبع بالقاهرة.

٣١ ـ منتقى الإجماع وبيانه، ذكره ياقوت والذهبي والمقري.

٣٢ ـ النصائح المنجية، طبع في «الفِصَل».

٣٣ ـ نقط العروس في تواريـخ الخلفاء، طبع عام ١٩١١. ثم أعيد طبعه عام ١٩٥١.

٣٤ ـ نـكت الإسـلام، ذكـره الحـافظ الذهبي، ونقل كلاماً فيه للقاضي ابن العربي.

هذا وقد كانت وفاة الإمام أبي محمد بن حزم في «لبلة» بالأندلس لليلتين بقيتا من شهر شعبان سنة (٤٥٦ هـ ـ ١٠٦٤ م). رحمه الله تعالى.

* * *

الأمير
عبد الرحمن الناصر

أعلام من المغرب والأندلس

٨

الأمير

عبد الرحمن الناصر

تأليف

سيف الدين الكاتب

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦-٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧-ص.ب: ٥٠٢١/١٣ بيروت - لبنان

الفصل الأول

- ١ -
وقفة بين عصرَيْن !..

إذا كـان الأمير عبـد الرحمن بن معـاوية (الـداخل)، هـو مؤسس الدولـة الأمـويـة في الأندلس.. فإن مما لا يرتاب فيه أحد.. أن الحكم الأموي في عهد عبـد الرحمن الثالث، الذي عُرف بالناصر لدين الله.. قد بلغ ذروة مجـده وقمة عـظمته في شتى مجـالات التـطور

الحضاري عمرانياً واقتصادياً واجتماعياً وعسكرياً..

ولئن كان القرن الهجري الرابع هو العصر الذهبي في تاريخ الدولة الأموية بالأندلس.. فلا ريب أن صانعه هو عبد الرحمن الناصر.. هذا الذي أمسك بزمام الحكم في تلك البلاد منذ مطلع هذا القرن الذهبي من قرون الإسلام.. ثم استمرت إمارته حتى استغرقت شطره الأول كله..

ومن هنا يمكن أن ندرك بعض أبعاد هذه الشخصية الإسلامية التي نترجم لها اليوم..

واليوم.. لا يُذكر الأندلس ـ هذا الفردوس المفقود ـ إلا ويُذكر معه الأمير الأموي عبد الرحمن الناصر.. أمير قرطبة.. وباني مدينة الزهراء..

وأود هنا أن أصِل، ما انقطع من حديثنا عن الدولة الأموية في الأندلس.. والتي شهدنا تطوراتها من خلال الحديث عن مؤسسها عبد الرحن الأول (الداخل).. وانتهينا من ذلك إلى انقضاء إمارته بوفاته سنة (١٧٢ هـ - ٧٨٨ م)، حيث خلفه على حكم بلاد الأندلس ابنهُ (هشام الأول) المعروف ب(الرضا)، والذي شبّهه المؤرخ المغربي شهاب الدين المقّري بمعجزة الإسلام (عمر بن عبد العزيز) في عدله واهتمامه بشؤون المسلمين..

وقد وصف المؤرخون هشاماً الأول بأنه: كان تقياً صالحاً، صرف عهده فيما يعود على بلاده بالخير والرفاهية، وأتم المسجد العظيم الذي أسسه أبوه، كما شيد غيره من المساجد في

قرطبة وغيرها. وعُني بنشر اللغة العربية، حتى لقد كانت تدرس على عهده في مدارس اليهود، وبلغ من تواضع هشام الأول أنه كان يطوف في شوارع قرطبة، ويختلط برعيته، وينظر في المظالم بنفسه، ويشهد الجنائز، كما ذكر (دوزي) في كتابه عن تاريخ الإسلام في إسبانيا.

وفي سنة (١٨٠ هـ - ٧٩٦ م) توفي هشام الأول (الرضا)، بعد أن حكم الأندلس نحواً من ثماني سنين، وكان - كما وصفه المقّري في نفح الطيب - من أهل الخير والصلاح، كثير الغزو والجهاد.

ولي الحكَمَ بعد هشام ابنُه الحكَمُ الأول الذي كان يختلف عن أبيه اختلافاً كثيراً. . حتى لقد كانت سياسته ترمي إلى إقصاء الفقهاء،

ومنعهم من التدخل في شؤون الدولة .

وذكر ابن خلدون أن الحكَمَ كان أول من جنّد بالأندلس الأجناد المرتزقة، وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الحشم والحواشي، وارتبط الخيولَ على بابه، واتخذ بعض العجم مماليك بلغت عدتهم خمسة آلاف، وكان يسميهم الخُرْس لعُجمتهم .

استمرّ حكمُ الحكَم إلى سنة (٢٠٦ هـ - ٨٢١ م) حيث خلفه ابنه عبد الرحمن الثاني أو (الأوسط) الذي امتاز عهده بالهدوء والسكينة، وكثرت الأموال في خزائن الدولة . . واتخذ القصور والمتنزهات، وجلب المياه من الجبال إلى (قرطبة) ، وأقام الجسور، ونظم الشوارع، وأنشأ المساجد في أكثر مدن الأندلس، وجعل

إلى جانب كل مسجد مدرسةً ومستشفى، وأصلح الطرق الرومانية القديمة، كما شجع العلوم والآداب والفلسفة، فظهر في بلاد الأندلس في أيامه نوابغ من كل فن.

ولما استتبَّ لعبد الرحمن الأوسط أمر الأندلس، تفرّغ لإصلاح البلاد، فنمت ثروتها حتى نافست الدولة العباسية في العظمة، والنهضة العلمية.

وكانت في عهد عبد الرحمن الأوسط غارات كثيرة قام بها مسيحيّو الشمال فجنَّد إليهم جنوداً خربت بلادهم وأرغمتهم على دفع الجزية.

وقد وصف (لينبول) عبدَ الرحمن الأوسط بأنه كان ليّن الخُلق، سهلَ القياد، نقيًّ

الذوق، ملك زمامه طول حياته أربعة نالوا عنده الحظوة الكاملة، مغنٍّ وفقيه وامرأة، وعبد أسود، وكان أشدَّ هؤلاء تسلّطاً عليه هو الفقيه يحىٰ بن يحيى الليثي، وعبد الرحمن هذا كان هو الذي أثار الفقهاء على أبيه الحكَم..

وعندما مات عبد الرحمن الأوسط سنة (٢٣٨ هـ - ٨٥٢ م) خلفه ابنه محمد الأول الذي لا يذكر عنه سوى إرسال حملات موفقة إلى شمال إسبانيا للقضاء على الثورات التي قامت في برشلونة وطليطلة وغيرهما، حتى استطاع أن يوطد الأمن في هذه الأرجاء جميعاً.

قضى محمد الأول خمساً وثلاثين سنة في إمارته على الأندلس، وخلفه بعد ذلك ابنه (المنذر)، ولكن إمارته لم تدُم اكثر من سنتين،

ثم وليَ الحكْمَ أخوه عبد الله من سنة (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ - ٩١٢ م)..

وبالرغم من ذهاب بعض المؤرخين إلى أن عبد الله بن محمد كان هو الذي دبّر مقتل أخيه (المنذر)، إلا أن ما يعنينا من أمره هنا.. أنه ولي حكم الأندلس نحواً من ربع قرنٍ كان كعهد أخيه المنذر، وأبيه محمد الأول: مليئاً بالثورات التي أعقبت ثورة المسيحيين بقرطبة، وانتشر العصيان في ولايات الأندلس، فلما تولى عبد الله هذا، كان - كما يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه: تاريخ الإسلام - كان أضعف من أن يقف على قدميه في وجه الخطر الذي كان يهدد ملكه..

رغم ذلك فإن مؤلف (تاريخ الإسلام)

يصف عبد الله هذا بالقسوة وسوء التدبير، مما أثار كراهية الناس له، فنبذوا طاعته، حتى إن أكثر بلاد الأندلس، قد استقلّت ولّما يمض على توليته ثلاث سنين، واتخذ زعماء العرب والبربر والأسباب من ضعفه وسوء حكمه فرصة للخروج عليه والاستقلال بالولايات تحت أيديهم، فانتشرت الفوضى، واستولى العرب ـ وكانوا أقلية ـ على بعض الامارات كإشبيلية التي أصبحت منافساً خطيراً لقرطبة عاصمة الأمويين في الأندلس، ولم يعد عبد الله يعتمد إلا على الجنود المرتزقة في إخضاع أهل قرطبة إخضاعاً صورياً . .

أما البربر فقد عادوا إلى النظام القبلي الذي يتفق وتقاليدهم وطبائعهم، فاستقلّوا ببعض

الولايات الغـربية مثـل (استرامـادور) وجنوبي البرتغال، واحتلوا مراكز عظيمة الشأن في بلاد الأندلس كمدينة (جيان). .

وقصارى القول: أن هؤلاء جميعاً قد أجمعوا على كراهية الأمير عبد الله بن محمد ومناوأته، والاستهانة بسلطانه، وكان أكـثر الزعـماء قوة وأشـدهم خطراً رجـل كان يُـدعى (عمر بن حفصون) وكان يدين بالإسلام، ثـم ارتد إلى النصـرانية، وسمّى نفسـه (صمويـل)، وأثـار سكان الجبال بإمارة غرناطة، حتى غدا لَهُ جيش استطاع أن يهزم به جيوش الأمير عبد الله غير مرة .

تلك هي حال الأندلس في نهايـة القرن الهجري الثالث، قد غدت من التمزق مقطّعة

الأوصال منبتّة الأواصر، وهكذا أشرفت دولة الأمويين في الأندلس على الزوال على عهد عبد الله بن محمد، وقبل انتقال الإمارة إلى عبد الرحمن الثالث (الناصر) سنة (٣٠٠ هـ - ٩١٢ م).. هذا الشاب الذي لم يكن يتجاوز الثانية والعشرين من عمره.. حين أُسند إليه أمر بلاد الأندلس.. وهي على تلك الحال من التفتت والتمزق..

* * *

- ٢ -

اختيار « الناصر » للإمارة

وقع الاختيار على عبد الرحمن (الثالث) ابن محمد، في ظل ظروف كان الحكم فيها ضرباً من المسؤولية الشاقة.. التي بدا حسنُ القيام بها أمراً مستحيلاً.. فالدولة الأموية في تصدّع يكاد يتداعى له بناؤها الجديد في الأندلس.. بعدما تداعى من قبل في المشرق.. إن لسان الدين بنَ الخطيب يصف الدولة الأموية في النصف الثاني من القرن الهجري

الثالث بأنها لم يبق منها سوى الاسم.. ولا عجب فقد طالما غمر الظلام الكثيفُ آفاق المستقبل السياسي لهذه الدولة.. بحيث يصعب التنبؤ بشيء مما يحمله من مفاجآت.. بعد نصف قرن من الحرب الأهلية الدامية..

وفي غمرة هذا الظلام الكثيف يشرق على الأندلس فجر جديد.. ينقذها من براثن الليل، ويُزيح عنها كوابيس الأيام الخالية.. ولم يكن ذلك غير عبد الرحمن الثالث.. رجل المرحلة الذي عاش في أتون الأزمات.. وانصهر بالتجربة الكافية، لتضاف الى موهبة فذة، ومقدرة غير عادية في تحمل أعباء الحكم ومسؤولياته..

وقصة عبد الرحمن الناصر مع الامارة.. لم

تخلُ من عامل الصدفة تماماً.. إذ تدخلت المنافسة بين ولدي الأمير السابق (محمد والمطرّف) لصالح الحفيد عبد الرحمن الثالث.. ذلك أن (المطرّف) حسب ما تفيد المصادر، ألصق تهمة غريبة بأخيه المرشح لولاية العهد، أسفرت عن تصفيته بموافقة الأب كما يذكر ابن الخطيب في (اعمال الأعلام) والمقّري في (نفح الطيب)..

ويبدو أن الأب الأمير شعر بالتورّط لما أقدم عليه، وأرّقه أن يشارك في مؤامرة دنيئة استهدفت ابنه المفضل، بصرف النظر عن التهمة الموجهة اليه. ولكن الغريب بعد ذلك ان المصادر التاريخية تشير هنا إلى أن الأمير عبد الله قد خانته أعصابه حتى قضى على ابنه الآخر (المطرّف)..

ومن ثم فقد وجد الأمير عزاءه في حفيده (عبد الرحمن بن محمد).. هذا الفتى الغضّ اليافع.. فأعطاه كل حنانه ورعايته.. لا سيما بعد أن أكتشف فيه ملامح الذكاء وقوة الشخصية.. وتوسم فيه الرجل المناسب للفترة العصيبة الحرجة...

وقد شبّ عبد الرحمن في بيت الامارة، وأخذ بقسط وافر من الثقافة، حتى مال الى دراسة الفلسفة، وكان من عطف جده عليه وإيثاره دون أبنائه.. أنه رمى إليه بخاتم الإمارة - كما يذكر ابن عذاري في البيان المغرب - فاتخذ الناس ذلك دليلاً على رضا الأمير عبد الله عن حفيده.. خاصة وأنه كان يُنيبه عنه في الاعياد والمواسم والحفلات واستعراض الجيش..

ولما مات عبد الله في ربيع الأول سنة (٣٠٠ هـ - ٩١٢ م) أجلس الأمراء والقواد عبد الرحمن على العرش، وبايعوه ولقبوه (الناصر).. ولم يقم في وجهه أحد من أعمامه وأعمام أبيه.. وأرسلت البيعة إلى سائر ولايات الأندلس.. كما يذكر دوزي..

وهكذا اعتلى عبد الرحمن بن محمد عرش الإمارة، وهو شاب في مقتبل العمر.. لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره.. متدفق الحيوية والنشاط.. ومن هنا فقد استبشر بإمارته رجال القصر وأهالي قرطبة.. لما يعلمونه عنه من سمو الخلق وقوة الإدراك حتى لقد أنشد (ابن عبد ربه) صاحب العقد الفريد هذه الأبيات يوم تربع الناصر على عرش الإمارة

بالأندلس، وفيها يقول:

بدا الهلالُ جـديداً والملك غضٌّ جديدُ
يا نعمة الله زيدي إن كان فيكِ مزيدُ
إن كان للصوم فطر فـأنت للدهر عيدُ

* * *

الفصل الثاني

- ١ -

الأمير المتميّز

تسلّم عبد الرحمن الإمارة.. ومعها تسلّم تراثاً ثقيلاً من التبعات والمسؤوليات الشاقة.. متمثلة في التمزق السياسي، والحركات الانفصالية التي تفشت في كل الأقاليم.. فكان على الأمير الجديد أن يستهل عهده بخطوة شامخة في إطار معالجة الوضع الداخلي

المتصدّع.. ومن هنا فقد أصدر ما يمكن تسميته (برنامجاً عاماً) لسياسته الجديدة.. تجلّى في ذلك البيان الموجّه للثوار والمتمردين الذين امتلأت بهم بلاد الأندلس.. وفيه من الانفتاح والدعوة إلى الحوار.. مثل ما فيه من الوعيد والتهديد بأشد العقاب..

وأعقب عبد الرحمن ذلك بخطوة عملية حين أرسل ممثلين عنه إلى الأقاليم المتمردة للتحاور معها وإعادتها إلى دائرة السلطة المركزية.

ولعلنا لا نجانب الحقيقة إذا ذهبنا إلى أن تسلّم عبد الرحمن الإمارة كان له أطيب الأثر في تنقية الأجواء العامة في الأندلس.. بل لقد كانت شخصيته الجذابة تعكس تأثيرها القيادي بين رجالات الحكم والبلاط.. وامتد تأثيرها

الى أوساط الشعب.. الذي رأى أن أميره الجديد القوي المتميز.. لم يكن أسير عقد خاصة أو مطية لاعتبارات ضيقة.. بل كان نموذجاً فريداً في سلسلة الأمراء الأمويين، بإفناء نفسه في مصلحة الدولة.. والقيام على شؤونها.. بحيث كان مكرساً طاقاته جميعاً للعمل دون توقف..

وإذا كانت جماهير الناس مشغوفة بالتغيير في كل زمان ومكان.. فإن التغيير الجذري في بنية الحكم.. وفي أسلوب معاملة الرعية.. الذي رافق توسد الأمر الى عبد الرحمن الثالث. كان له الأثر الإيجابي الطيب.. بظهور بواكيره الأولى في قرطبة، وانتشاره في مدة وجيزة، وبسرعة مذهلة في بقية الأقاليم الأندلسية...

لقد اجتمعت في شخصية عبد الرحمن الثالث مواهب جمة.. كانت كل واحدة منها كفيلة بأن تؤهل صاحبها ليكون حاكماً ناجحاً.. ثم ليكون رجل العالم الاسلامي القويّ بعد ذلك.. فهو سياسي بارع.. وقائد شجاع.. وإداري صارم.. يضاف الى ذلك كله ثقافة أدبية ودينية واسعة.. وذوق رفيع.. وخُلقٌ حَسَنٌ.. وكياسة وفطنة.. وشخصية تتمتع بذلك كله.. لا بد أن تترك بصماتها على دولة الأندلس وتاريخها الإسلامي!...

* * *

- ٢ -

سياسته الداخلية والخارجية

كانت مشكلة (عمر بن حفصون) أخطر مشكلة يتوارثها الأمراء الأمويون حتى ذلك الحين.. ولم يختلف الحال مع الأمير الجديد.. الذي تريث قليلاً ينتظر ردّة الفعل على بيانه الذي أعلن فيه (البرنامج العام) لسياسته.. قبل أن يقوم بأية بادرة عسكرية.. فلقي استجابة لدى بعض الثائرين.. وامتناعاً لدى آخرين، وكان في طليعة الأقاليم التي اعترفت

بـإمـارتـه إقليم (سـرقُسْـطَة). . ثم تـوالت الاعترافات تشقّ بداية جيدة لهذا العهد، وتفتح له آفاقاً واسعةً بأقل قدر من العناء. . غير أن فريقاً من الثائرين ـ وهـو الأكثر خـطورة ـ ظل متجاهلاً نداء الأمير، مستنكفـاً عن التعاطف معه. . فلم يتردد عبد الرحمن الثالث في النزول عندها إلى معترك الصراع، وسحق المتمـردين المنتشرين في أرجاء متفرقة من بلاد الأندلس. .

وكان من اهتمام الأمير بهذا الأمر. . أنه لم يقبع في قصره متخلياً عن المهمات العسكرية إلى قواده. . بل كان يباشـر تنفيذهـا بنفسه، وبمنتهى البراعة. . يساعده عـلى ذلك شبـاب متوقد وحيوية دائمة. . وشجاعة نادرة. .

ولمـا كان (ابن حفصـون) أخـطر أولئـك

الثائرين المتمردين جميعاً.. فقد جرّد له الأمير منذ بداية عهده جيشاً قوياً قاده بنفسه.. فكان أن شهـد إقليم (رُيَّـة) حيث معـقـل ابن حفصون.. باكورة نشاط الأمير عبد الرحمن العسكري.. وذلك بعد شهور قليلة من توليه الحكم...

وإذا كانت هذه العملية المبكرة التي دامت نحو ثلاثة أشهر قد حالفها النجاح في تطويع الإقليم وتمشيط حصونه الثائرة.. فإن حصن (ببشتر) ظلّ في منأى عن السقوط.. رغم الضربة التي أنزلها الأمير بابن حفصون.. هذا العجوز المتمرد.. وكانت هذه الحصون تدور في فلك ابن حفصون وتدين له بالولاء..

ورجع عبد الرحمن ليتولى مهمة أخرى في

(إشبيلية).. تلك المدينة التي استولى عليها (بنو الحجاج)، وجعلوا حكمها ملكاً متوارثاً فيهم.. ولم تنقضِ السنة الأولى من حكم عبد الرحمن حتى شهدت سقوط (بني الحجاج).. وإنهاء إحدى أخطر الحركات الانفصالية في ذلك العصر.

إن سياسة الأمير الناصر كانت تملي عليه واجباً خطيراً واحداً.. هو إعادة توحيد الأندلس.. وإنقاذه من براثن التمزق والسقوط.. وقد كان انهيار دولة بني الحجاج مؤشراً إيجابياً على إمكان تحقيق ذلك الهدف العظيم.. وقد كان في ذلك قوة أعطت الحكم الجديد دفعة شديدة في المسيرة الشاقة..

وفي سنة (٣٠٥ هـ - ٩١٧ م) مات ابن

حفصون، فتنازع السلطة من بعده أبناؤه.. الذين تمكن عبد الرحمن الناصر من شنّ الحملات عليهم حتى انتزع أملاكهم قطعة تلو الأخرى.. وتم له القضاء عليهم نهائياً سنة (٣١٦ هـ - ٩٢٨ م).

وخلال هذا كله أولى عبد الرحمن مناطق الثغور اهتماماً شديداً، وسعى إلى إعادة سيطرة قرطبة عليها، وفي سنة(٣١٦ هـ - ٩٢٨ م)أعلن نفسه خليفة، وربما شجعه على ذلك ضعف الخلافة العباسية بالمشرق، واستيلاء ضباط الأتراك والديلم عليها، حتى غدا الخليفة العباسي صورة ورسماً ليس إلا.. كما يمكن أن يكون مما شجع الأمير عبد الرحمن الناصر على إعلان الخلافة نجاح الشيعة الإسماعيلية بإقامة الدولة الفاطمية في المغرب وإفريقية، وإعلانهم

الخلافة الفاطمية. . ويعد نحو عامين استطاع (الناصر) إحكام سيطرته على الثغر الأدنى، ثم توجه نحو طليطلة فحاصرها عامين، واستولى عليها سنة (٣٢٠ هـ - ٩٣٢ م). بعد ذلك سيّر جيشه نحو الثغر الأعلى فتمكن من استعادته. . وهكذا استطاع عبد الرحمن الناصر خلال عشرين سنة من حكمه إعادة توحيد الأندلس. . وقد استهلك ذلك جُلّ نشاطه ووقته. . ومع ذلك نجده خلال تلك الفترة لا يغفل عن الحرب ضد النصارى. . وعلى الأخصّ في مملكتي (نافار) و (ليون) في الشمال الغربي لشبه الجزيرة الإيبيرية. .

ويمكن القول: إنه منذ منتصف القرن العاشر الميلادي إلى نهايته. . أمكن للمسلمين أن يسيطروا تماماً ولأول مرة على جميع أجزاء شبه الجزيرة، وإن لم يستوطنوا أراضي تلك

الممالك النصرانية في أطرافها.. واكتفوا بأن يبقوا في حكامها تابعين لقرطبة القوية يدفعون لأميرها الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

ولم يستقرّ المسلمون في الأراضي الشمالية لشبه الجزيرة الإيبيرية، لعدم وجود الرغبة في سكنى المناطق القريبة من فرنسا، لصعوبة العيش فيها، وعدم اعتيادهم طبيعتها ومناخها.. وصعوبة الحياة الجبلية المحفوفة بالخطر الدائم...

على أن العلاقة مع نصارى الاسبان على الشريط الحدودي ظلت تتأرجح بين الحرب والسلم في السنوات المتبقية من حكم الناصر، ولكن السخونة التي عرفتها هذه الجبهة مع مجيىء (راميرو الثاني) فترت الى حدّ كبير، ولا

سيما أن الأوضاع الداخلية في مملكة ليون حاملة شعار القضاء على المسلمين في إسبانيا، قد مرّت بعد وفاة ملكها المتطرف (راميرو الثاني) سنة (٣٣٩ هـ ـ ٩٥٠ م) بأزمة عاصفة نتيجة التنافس الشديد الذي وقع بين ولديه على وراثته . .

ومن المثير حقاً ان يكون للناصر دور في تحقيق الوفاق بين الأخوين النصرانيين وتنازل أحدهما للآخر، فكان أن حسمت المسألة لأحدهما . . وكان أن شعر هذا الملك النصراني الجديد بأنه مدين بعرشه لعبد الرحمن الناصر، ففتح معه صفحة من العلاقات الودية أفادت الطرفين، كما ذكر المقّري في نفح الطيب.

ولم يقتصر نشاط عبد الرحمن

على الأندلس.. فقد أخذ بالتوسع في شمال إفريقية، فشجع على الثورة ضد الخلافة الفاطمية، ونجح بعد جهد في السيطرة على الأراضي المعروفة اليوم بالجزائر، مع أجزاء من مراكش..

ومن الواضح أن اتخاذ عبد الرحمن الثالث لقب الخلافة، له علاقة واضحة بظهور الفاطميين، وتسمية نفسه: الناصر لدين الله، له معاني الرد عليهم، أو قل هو تقليد قلّد به خلفاء العباسيين والفاطميين، ليضفي على حكمه صبغة من القداسة والمهابة...

* * *

الفصل الثالث

- ١ -

أوسمة على صدر الناصر

لقد عمل عبد الرحمن الثالث على تقوية دولتـه مـادياً وأدبيـاً، حتى وصفـه (لينـول) بقـوله: «إن عبـد الرحمن أنقـذ الأندلس من نفسها ومن أعدائها، ولم يكتفِ بإنقـاذها من الدمار، بل خلق منها دولة عزيزة الجانب، ولم تكن (قرطبة) في عهدٍ من عهودها أغنى ولاأكثر

ازدهاراً مما كانت عليه في عهد الناصر، ولم تكن الأندلس قبل أيامه في تلك الحال من الخصب والامراع وتوالي الخيرات، التي نماها ووصل بها الى الكمال كدُّ اهلها ومهارتهم في الصناعة.. ولم يكن الحكم الأندلسي في يوم من الأيام أبهر انتصاراً على الفوضى، كما لم تكنْ قوة القانون أكثر نفوذاً إلى القلوب، وأعظم هيبة مثلما كانت في أيام عبد الرحمن الناصر!..

لقد تسابق إلى أبوابه الرسل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا، ليقدموا إليه تحية الإجلال والتمجيد.. وكانت قوته وحكمته، وثروة مملكته مضرب المثل في أفريقية وأوروبا، وبلغت شهرته أقصى حدود المملكة الإسلامية في آسيا.. وكان مصدر هذا الانقلاب العجيب رجلاً واحداً..

عانده كل شيء فقهره.. ووقف في طريقه كل شيء فحطّمه! وبعث الأندلس من حضيض البؤس إلى قمة القوة والازدهار.. ولم تصل البلاد إلى ذلك كله، إلا بذكاء الخليفة عبد الرحمن الناصر وصدق عزيمته»..

وقال المؤرخ شهاب الدين المقّري في وصف هذا الأمير الأموي:

«كان سلطانه أعظم ما كان.. وأعز ما كان الاسلام بملكه.. وحكي انه وُجد بخط الناصر رحمه الله! أيام السرور التي صفت له دون تكدير: يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، ويوم كذا من شهر كذا.. وعُدّت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً.. فاعجب أيها العاقل - يقول المقري - لهذه الدنيا، وعدم

صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها.. هذا الخليفة الناصر خلف السدود.. المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود.. ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام.. ولم تصفُ له إلا أربعة عشر يوماً.. فسبحان ذي العزة القائمة والمملكة الدائمة.. لا آله إلا هو»!..

وكان نقش خاتم الناصر: «عبد الرحمن بقضاء الله راضٍ» كما ذكر ابن عذاري في البيان المغرب، وقال في ذكر بعض أخباره:

«كان الناصر رحمه الله ملكاً أزال اللأواء، وحسم الأدواء، وقهر الأعادي، وعدل في الحاضر والبادي، قد أسس الأسوس، وغرس الغروس، واتخذ المصانع والقصور، وترك

أعـلاماً بـاقية إلى النفـخ في الصور، فـاعتبِرْ بـ (الزهراء) وكم بها من قصر مشيد، وآثار ملوك صيد، قد عادت معاهدها بعدهم دارسة وآثارها دونهم طامسة، تسفي الرياح بجنباتها، وتبكي الغيوم على عَرَصاتها، ولما ولي النـاصر لـدين الله، اعــتز ركن الــدين، واحـتمـى ذمــار المسلمين، وقام الجهاد على ساقٍ.. وخمدت نار الخـلاف والشقاق، ودخـل الناس في طـاعته أفواجاً، واستنفروا إلى دعوته أفراداً وأزواجاً.. فناهيك من فضل أعطاهم، وعدل أكنفهم به وغطاهم.. وتكرمة أنالهم إياها.. ومسرّة أبدى لهم محياها..»!..

* * *

- ٢ -

أمير قرطبة وباني الزهراء

إن تاريخ قرطبة مرتبط بالامويين ارتباطاً عضوياً وثيقاً، بكل ما انطوى عليه تاريخ هذه المدينة الحضارية العظيمة من الارتفاع والسقوط.. غير أن قرطبة الناصر لها مكانها المميز في تاريخ الأندلس.. كأعظم مدن ذلك العصر، إلى جانب (بغداد) حاضرة الدولة العباسية، و(المهدية) حاضرة الدولة الفاطمية قبل انتقال مركز خلافتها إلى (القاهرة)..

. حتى لقد نافست قرطبة الناصر عاصمة البيزنطيين المتألقة (القسطنطينية).. اتساعاً واكتظاظاً بالسكان.. ورفاهاً وعمراناً وحضارة..

فهذه المدينة التي انصبت فيها معظم مداخيل الاندلس الغنية، لتجعل منها نموذجاً متطوراً فريداً لمدن العصر الإسلامي الذهبي.. تستقطب نصف مليون من البشر، وتزدحم بآلاف المنازل والقصور، ومئات الفنادق والحمامات والمتاجر ودور العلم.. وتخترقها الشوارع والأسواق المرصوفة.. وتعج أروقة المساجد فيها بالعلماء والفقهاء، وتغصّ بطلاب العلم.. كما تجتذب قصورها الشعراء والأدباء والفنانين.. هذه المدينة.. كانت هي الوجه

الحضاري لدولة الأمويين.. التي بلغت ذروة تألقها وقمة مجدها في عهد الناصر لدين الله..

وفي قرطبة أشد ما يثير الإعجاب في كل زمان.. مسجدها العظيم الذي واكب في الحقيقة تاريخ الأمويين في الأندلس، بحيث كاد يكون لكل حاكم منهم بصماته الواضحة عليه.. حتى إذا كانت خلافة الناصر وابنه (الحكم) بلغ أقصى امتداده إلى الجنوب، حتى أصبح على محاذاة النهر (الوادي الكبير).. ولعل المنارة المذهبة التي سميت بمنارة الناصر هي أبرز المنشآت التي أضيفت إلى هذه المسجد العظيم، فكانت شاهقة الارتفاع.. غاية في الفخامة والدقة الفنية...

على أن منجزات الناصر في عاصمته.. والتي ابتدأت بالمسجد والمنارة، وانتهت بالسو

الكبير، لم تأخذ من المؤرخين ما تستحق من اهتمام.. اذ طغت عليها جميعاً المدينة الجديدة التي بناها الناصر على مقربة من قرطبة.. وسماها (الزهراء)..

وهذه المدينة العظيمة، هي في الحقيقة توأم الخليفة الناصر، بحيث لا يُذكر أحدهما منفصلاً عن الآخر. ولا بد أن بناء الزهراء له علاقة بالضغط السكاني في عاصمة الخلافة (قرطبة).. وقد نقل الناصر اليها بعد بنائها إدارة الدولة، وحاشيته ومعاونيه، لتكون عاصمته الجديدة المميزة التي تنعكس عليها ملامح العصر الذهبي للأسرة الأموية في الأندلس.

والزهراء تبعد نحو خمسة أميال إلى الشمال الغربي من قرطبة كما ذكر (دوزي).. وقد بوشر بالعمل في بناء الزهراء مطلع سنة

(٣٢٥ هـ - ٩٣٦ م).. أي في منتصف ولاية الناصر.. وقد روعي في تخطيطها نظام المدينة الكاملة.. لكي تستوعب أجهزة الحكم، ورجال الحاشية والجيش.

وفي أواخر سنوات حكمه.. بدأ الخليفة الذي ضاق بأعماله نصف قرن من الحكم الطويل.. بدأ يشعر بوطأة تلك السنوات الثقيلة تغتال فيه الحيوية التي ظلت دافقة بالعطاء طيلة خمسين سنة.. في أخطر فترة من تاريخ الدولة الأموية بالأندلس.. فقضى بضع سنوات بين الاعتكاف والظهور.. حتى توفي في رمضان سنة (٣٥٠ هـ - تشرين الأول ٩٦١ م).. خاتماً بذلك حياة حافلة بالدأب والنضال الشاق، والانجازات الباهرة..

وهكذا انتهت حياة هذا الرجل الذي

أمسك بزمام الحكم أعظم مدىً بلغه حاكم في تاريخ العرب والإسلام.. ومات الناصر لدين الله عن ثلاث وسبعين سنة.. وقد قُدّر له بفضل إرادته الفولاذية أن يصنع المعجزات في دولة كانت على مشارف النهاية!..فأنقذها من التصدّع، وأعطاها ذلك الوجه الحضاري المميز الذي أشرقت به الأندلس الإسلامية في العصر الوسيط...

* * *

إقرأ

في الحلقة التالية من هذه السلسلة

الرحالة

محمد بن بطوطة

الرّحالة

محمّد بن بطّوطة

أعلام من المغرب والأندلس

٩

الرحّالة
محمّد بن بطّوطة

تأليف

سيف الدين الكاتب

عز الدين
للطباعة والنشر

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦ - ٢٧٥٥٣٢ - ٢٧٥٥٦٣ - ٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ١١٥٢٥٠١٣/ بيروت - لبنان

الفصل الأول

الجغرافيا والرحلات قبل ابن بطوطة

إن للرحلة ارتباطاً وثيقاً بتاريخ العرب منذ حِقَبِهِ البعيدة.. غير أنها ظلّت في أطوارها الأولى بدائية، لا تستند إلى دوافعَ ذات مغزىً حضاري متطور، حتى جاء الإسلام، فكَانت الرحلة في الفتح، ثم الرحلة في طلب العلم، وإن لم تقترن هذه أو تلك بشيء من فضول الاستكشاف العلمي، الذي عرفه تاريخ الحضارة الإسلامية منذ القرن الهجري الثالث.

وقد ارتبطت الرحلة مُنْذاك بالبحث في أحوال الأقاليم، وقد حفظ لنا التاريخ بعض الآثار القديمة التي دونت تاريخ البلدان، ولكنها كانت في بداياتها الأولى نظرية، إلى أن جاء اليعقوبي في أواخر القرن الثالث الهجري، فصنف كتاب البلدان، وكان أول جغرافي عربي وصف الممالك معتمداً على ملاحظاته الخاصة، ومتوخياً قصد ما أراد من وصف البلاد وخصائصها، وهو يحدثنا عن نفسه: أنه عُني في عنفوان شبابه، وحدّةِ ذهنه بعلم أخبار البلدان، ومسافة ما بين كل بلد وبلد، لأنه سافر حديث السنّ، واتصلت أسفاره، ودام تغرّبه، وقد طاف في بلاد المملكة الإسلامية كلها، فنزل أرمينية، وورد خراسان وأقام بمصر والمغرب، وكان كلما لقي رجلاً سأله عن وطنه، وعن

زروعه وساكنيه، وعن شرب أهله وطعامهم ولباسهم ودياناتهم، من غير أن يصيبه في ذلك شيء من الفتور أو الملل..

وقد وصف اليعقوبي المملكة الإسلامية مبتدئاً ببغداد، وصفاً منظماً مع إصابة جديرة بالثقة والإعجاب، ولكنه ـ مع الأسف ـ لم يخطر له أن يؤلف كتاب رحلة على الحقيقة، يصف فيه تجاربه الخاصة، وأحوال الناس، وما لقيه في أسفاره.. ولم يكن جغرافيو ذلك العهد قد بلغوا هذه الدرجة من اعتقاد الطرافة في أنفسهم فلم يكترثوا لذلك كثيراً. إلى أن جاء المسعودي في القرن الرابع، فتفادى ما نقص اليعقوبي، حيث تكلم في كتبه التاريخية عن كثير مما لقيه من التجارب والمشاهدات في أسفاره، وهذا ما تحاشاه اليعقوبي.

ثم شهد القرن الرابع الهجري ظهور كتب المقـدسي وابن حـوقـل، وكـلاهمـا سـافـر في الممالك، وحمله تيار الأسفار، واستهوته حيـاة الارتحال والسياحة، وقد اقتصر كل من المقدسي وابن حوقل على وصف مملكة الإسلام، ويعترف المقدسي بأنه لم يتكلف وصف ممالك الكفار، لأنه لم يدخلها، ولم يذكر إلا مواضع المسلمين منها، وكان عدم دخوله لها كافياً في منعه من التعرّض لوصفها، لأنه كان يجعل المشـاهدة، ومعاينة ما يريد الكلام عنه أول دعامة للكتابة.

وكلاهما أيضاً كان قد اطلع على الكتب التي صُنفت في هذا الفن قبلهما، على أن بعض العلماء من معاصري المقدسي المحافظين، قد رموه بمخالفة الأصول المعروفة وبـالعدول عن

التقسيم السباعي المعروف، إلى التقسيم الرباعي في كلامه عن الفرق والمذاهب، كما حاول المقدسي أن يثبت من القرآن: أنَّ في العالم بحرين فقط هما بحر الروم، والبحر الصيني، مستنداً إلى قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿مرجَ البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان. فبأي آلاء ربكما تكذّبان. يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾.. فلقي المقدسي لذلك معارضة شديدة من العلماء..

وكذلك ابن حوقل.. فقد زعم أن الرمل المعروف بالهبير يمتد من وراء جبلَيْ طيء غرباً ماراً بمصر والمغرب، حتى ينتهي بالمحيط وغانا، وكذلك يمتد شرقاً إلى الصين والمحيط، وهو يزعم كذلك أن جبال الصين تمتد إلى التيبت

وفارس وأرمينية، حتى تتصل بجبال الشام، وجبال المقطم بمصر، وجبال المغرب. .

على أن الجغرافيين المتأخرين نسجوا على منوال ابن حوقل أكثر مما نسجوا على منوال المقدسي، وفي القرن الرابع ظهر (أبو دُلَف) الذي رحل إلى بلاد آسيا الوسطى والشرقية. . وفي هذا القرن خرج من مدينة لشبونة جماعة كلهم رجال أبناء عمومة، فأنشأوا مركباً، وتزودوا فيه، ثم ركبوا بحر الظلمات واقتحموه ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب، وليعرفوا إلى أين انتهاؤه، وهم يسمون المغرّرين، أو (المغرّبين) لاتجاههم غرباً. .

* * *

وفي القرن الخامس ظهر (البيروني) الذي صنف «الآثار الباقية عن القرون الخالية» وهو يتناول فيه الكلام على نظم وأنماط حياة الطوائف والجماعات في البلاد التي زارها، وبخاصة طبرستان والهند وخوارزم.

وظهر في القرن الخامس كذلك ناصر خسرو صاحب «سفرنامة» أو: زاد المسافر، وهو كتاب قيم يتضمن كثيراً من مشاهداته في فارس والعراق والحجاز ومصر وغيرها..

وظهر في القرن السابع أبو الحسن محمد بن جبير.. الرحالة الأندلسي الذي طاف البلاد، وصنف رحلته المشهورة التي ذكر فيها كل ما شاهده من عجائب البلاد، وغرائب المشاهد،

وبدائع الصنائع.. فجاء كتابه ممتعاً يحبب المرء في زيارة العالم.

وفيه ظهر ياقوت الحموي، الذي صنف «معجم البلدان»، ويعتبر من أهم المراجع التي يعتمد عليها الباحثون في كل ما يتعلق بجغرافية وتاريخ بلاد غربي آسيا.

وفيه ظهر القزويني مصنف (آثار البلاد وأخبار العباد) و(عجائب المخلوقات)، وفي كتابه الأول معلومات جغرافية وتاريخية كثيرة لكنها لا ترقى إلى المعلومات التي وعتها لنا آثار الجغرافيين المبكرين كياقوت الحموي وغيره.

أما عجائب المخلوقات، فإنه يشتمل على بيان التقويم الشمسي والنجوم والأجرام

السماوية، والحيوانات والنباتات والمعادن وكل ما يتعلق بالوحوش والحيوانات والمخلوقات الجغرافية المختلفة.

* * *

وظهر في القرن السابع كذلك الشريف الإدريسي، وهو من أهل (سبتة) بالمغرب الأقصى، وقد بدأ رحلاته وهو في السادسة عشرة من عمره، فزار بلاد الأندلس وفرنسا وإنكلترا، وزار معظم أرجاء شمالي إفريقية، ثم زار مصر والحجاز وآسيا الصغرى وبلاد اليونان.

ولم يكن الإدريسي رحالة وحسب، بل

كان عالماً موفقاً عميقاً في بحثه، وقد ألف كتابه (نزهة المشتاق)، ورسم خريطة العالم، التي يتبين منها أن العرب لم يكونوا يجهلون ألمانيا والسويد والنرويج وغيرها من البلاد الواقعة في شمالي القارة الأوربية، وفي هذه الخريطة عين الإدريسي منابع النيل بدقة، وصوّر بحر قزوين وصحراء فارس، ولولا خريطته هذه، لظلت تلك الناحية مجهولة لدينا.

ثم ظهر (ابن بطوطة).. الذي ولد في أوائل القرن الثامن الهجري سنة (٧٠٣هـ ١٣٠٤م) في (طنجة) من بلاد المغرب الأقصى.

وعلى يد ابن بطوطة أخذ أدب الرحلات شكله النهائي المميز، فكان كتابه الذي حفظ لنا أخبار سياحته في الأرض على مدى ثلاثين سنة،

أعظم أثر إسلامي في أدب الرحلات، ولم يزل كذلك إلى يوم الناس هذا.

وإليك ترجمة هذا العلم الشامخ من أعلام الإسلام، قبل أن نشرع في مطالعة رحلته، وإن شئت فقُل: مأثرته الخالدة رحمه الله.. قال الزركلي في ترجمة ابن بطوطة من كتابه الأعلام: (١١٤/٧):

محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبدالله، ابن بطوطة، رحالة مؤرخ، ولد ونشأ في طنجة بالمغرب الأقصى، وخرج منها سنة ٧٢٥هـ فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين وجاوة وبلاد التتر وأواسط إفريقية والأندلس.

اتصل بكثير من الملوك والأمراء، فمدحهم ـ وكان ينظم الشعر ـ واستعان بهباتهم على أسفاره، وعاد إلى المغرب الأقصى، فانقطع إلى السلطان أبي عنان (من ملوك بني مرين)، فأقام في بلاده، وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس سنة ٧٥٦ وسماها تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ترجمت إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والانكليزية، ونشرت بها، وترجمت فصول منها الى الألمانية نشرت أيضاً، وكان يحسن التركية والفارسية.

استغرقت رحلته ٢٧ سنة (١٣٢٥ ـ ١٣٥٢م) ومات في مراكش، وتلقبه جمعية كمبردج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالة المسلمين.

وفي نابلس بفلسطين اليوم أسرة تدعى «بيت بطبوط» وتعرف ببيت المغربي وبيت كمال، تقول إنها من نسل ابن بطوطة.

* * *

الفصل الثاني

- ١ -
الرحلة في طورها الأول

إذا ذهبتَ تقرأ هذه المأثرةَ العظيمةَ التي خلّفها ابن بطوطة.. بعد رحلة في آفاق الأرض استمرت نحواً من ثلاثين سنة.. طالعتك شخصية هذا الرحالة آخّاذة مؤثرة، تأسرك وأنت تطالع السطور الأولى.. ثم ما تلبث قائمة في تصوّرك إلى أن تفرغ منها.. وربما شقّ عليك الانعتاق منها بعد ذلك أمداً غير يسير..

وإن كنت تجهل الأسباب المباشرة لذلك على وجه التحديد!..

وابن بطوطة في مستهلّ رحلته.. يبدو لك شاباً تقياً نقياً قد نشأ في طاعة الله.. حتى ليبدو عليه سَمتُ الوقار والصلاح، الذي لا يتسم به إلا الأجلّة من الشيوخ، وهذا ما يزيدك انبهاراً بهذه الشخصية الموجودة على ذلك النحو الأخّاذ في كل سطر وكل كلمة..

ونحن لا نكاد نعلم شيئاً عن طفولة ابن بطوطة الأولى، ليمكن استشفاف أثرها في تكوين شخصيته، وتلوين اهتماماته ورغباته.. وإن كنا نعلم أنه وُلد ونشأ في «طنجة» هذه المدينة الجميلة التي تغفي على شاطىء المحيط الأطلسي، عند ملتقاه بالبحر الأبيض المتوسط، والتي أتاح لها موقعها أن تكون أحد الموانىء

الهامة في المغرب، حيث ترسو السفن القادمة من كل اتجاه.. والمنطلقة في كل اتجاه..

ووقفة فتىً مغربي على ذلك الشاطىء تعطيه الكثير من مشاعر الانطلاق من كل قيد نفسي واجتماعي.. وربما كان لذلك أثره في تكوين شخصية ابن بطوطة.. كما لا يخفى أن نزول كثير من المسافرين الغرباء.. القادمين من جهات الأرض!. والمتكلمين بكل لغة ولسان.. كان له كذلك أثر في تلوين اهتمامات ابن بطوطة في طفولته..

والذي يعنينا من هذا وذاك جميعاً، أن ابن بطوطة نشأ شغوفاً بالارتحال في أرجاء الأرض.. وإن لم يبدُلنا ذلك من خلال مطالعة الفصول الأولى من رحلته العظيمة.. على أن لنا أن

نذكّر بما كان للارتحال إلى الديار المقدسة بقصد الحج من أثر في نفس كل فتىً مسلم.. ولعل هذا كان هو الباعث الأول في رحلة ابن بطوطة.. ثم تطور حتى غدا ضرباً من حب الاستكشاف وفضول المعرفة الكامن في نفس كل فتى منذ حداثته.. فإذا صرفه عن ذلك صارفٌ، من ضغوط البيئة، وأعراف المجتمع، توارى في النفس حتى يحقق ذاته على ذلك النحو الخيالي المتمثل بأحلام اليقظة، التي تستهوي كل شاب..

والذي يمكن استقراؤه من خلال سطور الرحلة.. أن ابن بطوطة لم يخرج من طنجة مرتحلاً في الأرض.. إلا بعد ما اكتسب قسطاً وافراً من العلوم والمعارف الإسلامية.. بمعنى

أنه استكمل أسباب شخصيته الإسلامية الأولى..

ولكنك تألف وجه ابن بطوطة الروحي.. الذي يطل عليك من خلال السطور، بين فينة وأخرى.. حتى لقد قام في نفسي أن أعظم بواعث الرحلة.. إنما كان ذلك التعشق لاستكشاف شخصيات العصر الروحية.. وكراماتها الربانية، التي تأسر النفس المؤمنة الشفافة، وتغمرها بدفق من النورانية والروحانية العالية..

وربما جاز لنا أن نفسر من خلال هذا المنظور.. طول إقامة ابن بطوطة في بلاد الهند.. وهي التي تعرف بكثرة زهّادها وعُبّادها قبل الإسلام وبعده..

وإنك لتحسّ انبهار ابن بطوطة بما يُجري الله على أيدي أولئك المتصوفة من غرائب وخوارق وكرامات، حتى تراه يعلن عن رغبته الصادقة في ملازمتهم.. أو تراه يعلن عن ندمه لعدم ملازمته أحداً منهم ظهرت له بعض كراماته بعد موته أو بعد الانصراف عنه.. وسوف نعرض لهذا بشيء من التفصيل بعدُ إن شاء الله..

إذن فقد خرج ابن بطوطة من مسقط رأسه طنجة معتمداً حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.. منفرداً عن رفيق يأنس بصحبته.. أو ركبٍ يكون في جملته.. لباعث على النفس شديد العزائم.. وشوقه إلى تلك المعاهد كامن في الحيازم [أي في

الجوانح]. . فجزم أمره على هجر الأحباب من الإناث والذكور. . وفارق وطنه مفارقة الطيور للوكور ـ كما يقول في مستهل رحلته ـ ثم يضيف:

وكان والداي على قيد الحياة، فتحملت لبعدهما وصَباً [أي مرضاً يعني المشقة]، ولقيتُ كما لقيا من الفراق نصَباً، وسنّي يومئذ ثنتان وعشرون سنة.

وكان ارتحال ابن بطوطة في عهد أبي سعيد المريني. . فوصل إلى «تلمسان» إحدى مدن الجمهورية الجزائرية اليوم، وفي تلمسان التقى ابن بطوطة بقاضيين تونسيين خرج بصحبتهما إلى «مليانة»، ثم إلى «الجزائر» ثم «بجاية» التي أصيب فيها الرحالة بالحمى، فأشار عليه أحد

رفاقه بالإقامة فيها حتى يتمكن من البرء منه، فأبى وقال لصاحبه:

- إن قضى الله عزَّ وجل بالموت فتكون وفاتي بالطريق، وأنا قاصد أرض الحجاز..

وهذه كلمة تدلنا على مدى شفافية نفس هذا الرحالة المؤمن، وهي شفافية من ورائها حدّة الشباب، وإيمان الشباب.. ولكننا لن نفتقدها بعد ذلك بين سطور الرحلة الطويلة من مبتدئها إلى منتهاها!..

إنطلق المحموم المؤمن، بعد ما أشار عليه صاحبه أن يبيع دابته ويـ ـ من حمله، على أن يعيره دابة وخباء.. ليصـ ـم خفيفاً، فإنهم يجدّون السير مخافة أن يُغير عليهم قُطاع الطريق.. يقول ابن بطوطة:

ففعلت هذا، وأعارني ما وعد به جزاه الله خيراً، وكان ذلك أول ما ظهر لي من الألطاف الإلهية في تلك الوجهة الحجازية..

إلى أن وصلنا مدينة تونس، فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبدالله الزبيري ولقاء الفقيه النفزاوي - صاحبَيْ ابن بطوطة في رحلته - فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يسلّم عليّ أحد لعدم معرفتي بهم.. فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوابق العَبرة، واشتد بكائي، فشعر بحالي بعض الحجاج، فأقبل علي بالسلام والإيناس، وما زال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة (تونس) ونزلت منها بمدرسة الكتبيين..

* * *

كان ابن بطوطة حريصاً على طلب العلم، والاجتماع بعلماء كل بلدٍ يصل إليه، وأنت إذا طالعت كتابه.. وجدت هؤلاء هم الذين اهتمَّ ابن بطوطة لذكرهم أكثر من أي فئة أخرى.. ثم يجيء الحكام والأمراء في اهتماماته بالمرتبة الثانية.. وهو حريص على ذكر أسماء من أسعفته الذاكرة منهم عند إملاء الرحلة على ابن جزي بعد عودة ابن بطوطة منها، وكان إملاؤه إياها سنة (٧٥٦ هـ ـ ١٣٥٥م)

* * *

ومن تونس وصل إلى «صفاقس»، حيث عقد على بنت لبعض أمناء تونس، وتزوجها ثم لم يلبث أن طلقها في طرابلس، ثم تزوج من غيرها، وليس في الرحلة إشارة تفيد أنه حملها

معـه في رحلته، وقـد وصل ابن بـطوطة إلى الإسكندرية في أول جمادى الأولى سنة(٧٢٦ هـ ١٣٢٥م)، وقد أقام فيهـا فترة التقى خـلالها ببعض العلماء والزهاد والذين كان لهم أثر في تغيير مجرى حياته كما نرى بعد ذلك إن شاء الله.

ومن الاسكندرية انتقل إلى دمنهور ثم إلى إبيار فالمحلة الكبرى فدمياط، وأخيراً وصل إلى القاهرة التي سماها؛ أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، وقد أقام بالقاهرة مدة كافية أتاحت له أن يصف لنا كـل معالمهـا وآثارهـا بدقـة عجيبة، وأسلوب ممتع، حتى يخيل إليك وأنت تقرأ وصفها بقلم ابن بطوطة.. كأنك حيال لوحة زيتية متناهية الدقة والجمال.. رسمتهـا ريشة رشيقة الخطوط والألوان..

وانطلق الرحالة من القـاهرة عـلى طريق الصعيد قاصداً الحجاز، غير أن سفره بالبحر إلى جدة تعذّر، فرجع أدراجه عازماً على الحج من طريق الشام، فوصل إلى غزة، ومنها إلى الخليل فالقدس فالرملة فنابلس فعكا من الديار الفلسطينية، ومنها سافر إلى صور فصيدا على الساحل اللبناني، ثم شرّق إلى طبرية، ثم رجع إلى بيروت فطرابلس، ومنها إلى حمص فحماة فحلب، ومنهـا إلى أنـطاكيـة ثم إلى (جبلة) فاللاذقية من الديار الشامية.. ثم سافـر إلى جبل لبنان فزار بعلبك وفي رمضان من سنة ٧٢٦هـ وصـل إلى دمشق التي عبّر عن فـرط اشتياقه لها..

وأقام في دمشق مدة غير وجيزة، فتعرّف

على علمائها وزهادها وآثارها ومشاهدها، وفي جامعها الكبير سمع ابن بطوطة صحيح البخاري على ابن الشحنة في جماعة كبيرة من أهل العلم وطلابه. وفي شوال من السنة نفسها خرج الرحالة مع الركب الحجازي، حيث نزلوا ببصرى الشام، ثم ارتحلوا إلى تبوك فالمدينة المنورة..

وفي المدينة زار ابنُ بطوطة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلى فيه بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الشريفين.. واستلم القطعة الباقية من الجذع الذي حنَّ إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وانصرف إلى رحله مسروراً بهذه النعمة العظمى، مستبشراً بنيل هذه المِنّة الكبرى، حامداً الله على البلوغ إلى معاهد رسوله الشريفة، ومشاهده العظيمة

المنيفة.. داعياً أن لا يجعل ذلك آخر عهده به كما يقول في رحلته..

ويفيض ابن بطوطة ـ كعادته عند كل أثر إسلامي ـ يفيض في وصف مسجد النبي الكريم ويستعرض تاريخه بدقة محكمة، ثم يعرّج على حكايات بعض المجاورين بالمدينة المنورة، على عادته في الاهتمام بذكر كل صغيرة وكبيرة من مشاهداته رحمه الله..

ويصل إلى مكة فيحدثك عنها حديث الوصّافة الرسام اليقظ.. ثم يذكر فضل المسجد الحرام وتاريخ الكعبة المشرفة والمشاعر المباركة.. ويعرّج على فضائل أهل مكة وعاداتهم، ويذكر من لقي من علمائها وما سمع من حكايات طريفة فيها.

وفي العشرين من ذي الحجة سنة ستة وعشرين وسبعمائة خرج من مكة في ركب أهل العراق. . حيث مر بأرض نجد، ثم وصل إلى القادسية، ومن ثم رحل فنزل مدينة النجف الأشرف حيث مشهد الإمام عليّ كرم الله وجهه، ولم يفُتْه أن يصف المشهد والروضة أدق وصف وأبدعه، ثم انتقل إلى البصرة التي شاهد فيها من عجائب الخلق والبناء ما شاهد، ثم ركب من ساحلها إلى الأبلّة فعبّادان التي فيها مساجد كثيرة ومتعبدات ورباطات للصالحين كما قال. .

وفي عبادان لقي عابداً رأى من أحواله ما دفعه إلى القول: وهجس في خاطري الإقامة بقية العمر في خدمة ذلك الشيخ، ثم صرفتني النفس اللجوج عن ذلك.

وسافر ابن بطوطة متوغلاً في بلاد فارس، فزار «تُسترُ» و«أصفهان» ثم «شيراز» ثم رجع منها إلى الكوفة، حيث سافر منها إلى «كربلاء» فبغداد، ثم إلى «تكريت» فالموصل، ومن الموصل رحل إلى البلاد التركية فزار نصيبين ثم ماردين ولم يتوغل في تركيا حيث قفل راجعاً إلى الموصل فبغداد، حيث وجد ركب الحج في أهبة الرحيل، فخرج معهم إلى الحجاز ليحجّ للمرة الثانية، وبعد الفراغ من حجه سنة (٧٢٨هـ ١٣٢٧م) أقام ابن بطوطة بمكة مجاوراً سنة تسع وعشرين وسبعمائة، حيث حجَّ فيها ثالثة وجاور بها سنة (٧٣٠هـ) كذلك.

* * *

- ٢ -

الرحلة في طورها الثاني

إن كثيـراً من عبـارات ابن بـــطوطـة في رحلته.. تشير بأن الديار المقدسة كانت حلمه الأول.. وأنه لم يكن ينوي متابعة الرحلة في أطراف الأرض.. وربما كان يقصد أن يجاور بمكة أو بالمـدينة ليقضي بقيـة عمره في تلك الرحاب الطاهرة المقدسة.. لكنّ أموراً طرأت عليه أثناء ذلك فغيرت مجرى حياته.. ورفعته من مصاف الرجال العاديين إلى الصف الأول من عباقرة التاريخ الخـالدين.. حتى وصفتـه

دائرة المعارف الدولية بأنه «قام بأطول رحلة استكشاف في التاريخ الإنساني، فقد قطع خمسة وسبعين ألف ميل، في رحلةٍ استغرقت ثلاثين عاماً، وذلك في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، وكان مستكشفاً لا يعرف التعب». .

ولكن ما الذي غيّر وجهة ابن بطوطة، ودفعه إلى الرحلة في أطراف الأرض، على ذلك النحو من الصبر الدؤوب، والإصرار الصادق.. برغم المخاطر الكثيرة التي اعترضت طريقه غير مرة، حتى أشرف على الهلاك المحقّق ؟!..

إننا نعتقد أن الرحلة في طورها الثاني ـ والذي استغرق ربع قرن من الزمان ـ إنما كانت استجابة للإيمان الخفي الذي ألقاه في روع ابن

بطوطة ذلك الزاهد الإسكندري.. الذي ذكر له أنه سيزور الهند والسند والصين.. وأنه سيلقى هنالك إخوة لهذا العابد الزاهد ـ وليس المراد إخوة نسب بل إخوة نهج وطريقة ـ وأوصاه من ثم أن يبلغهم سلامه حين يلقاهم.

وابن بطوطة يعترف هنا قائلاً: ولم يكن حينئذ بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين.. فعجبت من قوله، وألقى في روعي التوجه إلى تلك البلاد.. ولم أزل أجول حتى لقيتُ الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه..

وقد تكرر ذلك لابن بطوطة حين لقي الشيخ أبا عبدالله المرشدي بمصر، حيث رأى الرحالة وهو مقيم عنده وهو نائم بسطح

الزاوية، كأنه على جناح طائر عظيم يطير به في اتجاه القبلة.. ثم يتجه به مبعداً في الطيران من ناحية الشرق.. وينزل في أرض خضراء فيتركه بها.. وفي الصباح يكاشفُ الشيخُ ابنَ بطوطة برؤياهُ فيقصّها عليه، فيقول الشيخ: سوف تحج وتزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وتجول في بلاد اليمن والعراق، وبلاد الترك، وتبقى بها مدة طويلة، وستلقى بها أخي «دلشاد» الهندي، ويخلّصك من شدة تقع فيها..

لقد كان ابن بطوطة قوي الاعتقاد بكرامات الأولياء الصالحين، شديدالإيمان بمكاشفاتهم فكان لذلك الأثر الأعظم في تغيير وجهته ومنهج حياته.. ومن هنا.. فإنه لا يغفل عن إيراد كل صغيرة وكبيرة تتعلق بما

جرى له من ذلك في رحلته، ولا يكاد فصل من فصول الرحلة يخلو من ذكر كرامة من كرامات الأولياء.. ولعل لذلك ارتباطاً بطول مقامه في بلاد الهند.. فلعله كان ينتظر تحقق ولاية الشيخ الإسكندري الذي حدثه عن الأولياء الثلاثة.. والشيخ المصري الآخر الذي حدثه عن أخيه (دلشاد) الهندي..

وتعجب حين يكشف لك ابن بطوطة أمر (دلشاد) هذا بعد ذلك، إذ ترى حكاية قد طابقت في إجمالها وتفصيلها ما كان أخبر الشيخ به قبل عشرين سنة تقريباً.. وذلك أن ابن بطوطة تعرض للأسر وهو بالهند، حيث خرج من عند سلطانها رسولاً إلى ملك الصين.. وفي الطريق تعرض لهم بعض كفار الهند كما

يسميهم، فتفرق عنه أصحابه، وتبعه الهنود فأمسكوا به وأرادوا قتله، ولكن شاباً منهم طمع في الجبة التي كانت على ابن بطوطة، فعرض عليه أن يعينه على الهرب إذا أعطاه إياها، ففعل، فخلّ سبيله، فانطلق الرحالة في الأرض حتى دخل في مزرعة قطن، ومن ثم انطلق مع طلوع الفجر حتى أعيته قدماه، وهدّه العطش، فتهاوى على الأرض.. فبينما هو كذلك إذ لاح له رجل أسود اللون بيده إبريق وعكاز.. فسقاه وسأله عن نفسه.. فقال ابن بطوطة: أنا تائه، فرد الرجل: وأنا كذلك.. وعندما سأله عن اسمه قال الرجل: القلب الفارح.. فتفاءل ابن بطوطة وسُرَّ به.. ثم انطلقا معاً.. فلم يلبث الرحالة أن عجز عن السير، فحمله ذلك الرجل على كاهله.. وسار به.. فغلبت ابن

بـطوطة عينـاه، فلم يُفِقْ إلا لسقـوطـه عـلى الأرض.. فاستيقظ ولم يجد للرجل أثراً، ووجد نفسه في قريـة هنديـة عامـرة، وحاكمهـا من المسلمين فأكرمه وحمله إلى بيتـه.. يقول ابن بطوطة:

وفكرت في الرجل الذي حملني على عنقه، فتذكرت ما أخبرني به ولي الله تعالى أبوعبدالله المرشدي، وتذكرت قول الرجل حين سألته عن اسمـه فقـال: القلب الفـارح.. وتفسيـره بـالفارسيـة (دلشاد)، فعلمت أنـه هو الـذي أخبرني الشيخ بلقائه..

كان ابن بطوطة يرى كل يوم كـرامة أو عجيبة من تلك العجائب والكرامات.. وكان ذلك كافياً ليجدد همته في الرحلة والسياحة في الأرض..

ولعلني لا أبالغ إن زعمت أن ابن بطوطة كان واحداً من أوليـاء الله الصالحـين.. وقد يسعفني في هذا أنه كان كلما رأى قوماً من العباد أو الزهاد الأتقياء.. تمنى أو حاول أن يقضي معهم بقية حياته.. بل لقـد فعل شيئـاً من ذلك، يوم كان قاضيـاً في الهند، مقـرباً من سلطانها.. ثم التقى عابداً زاهـداً، فأعجب بطريقته وسلوكه.. فاعتكفـ متفرغاً للعبـادة، ولخدمة ذلك الرجل الصالح.. وملازمته خمسة أشهر.. كان يمارس على نفسه خلالها كل ألوان الـرياضـة الروحيـة من صيـام وقيـام وتـلاوة وذكر...

* * *

لقد طاف ابن بـطوطة بـلاد الأرض من

مشرقها إلى مغربها، وكان على ذلك يتابع نشاط غيره ممن ارتحل فيها من أهل عصره أو أصحابه، فتراه حين يتحدث عن (بلي) يقول:

ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصري السائح، وهو من الصالحين، جال الأرض، إلا أنه لم يدخل الصين، ولا جزيرة سرنديب، ولا المغرب ولا الأندلس ولا السودان، وقد زدتُ عليه بدخول هذه الأقاليم.

على أن ابن بطوطة أقام بالهند أمداً غير قصير، ربما لكثرة ما صادفه فيها من النفع الدنيوي والأخروي.. وقد تزوج هناك غير مرة، وأنجب أولاداً مات بعضهم صغيراً، وبقي الآخرون مع أمهاتهم لظروف لا نكاد نتبين حقيقتها وأبعادها من خلال كلام ابن بطوطة..

وفي تلك البلاد كان الرحالة العظيم أحد أركان الحكم، فقد عُين قاضياً غير مرة وكان له دور بارز في إقرار المعـروف وإنكار المنكـر. . وكـان شـديـداً في ذلـك حتى عـلى السلطان وحاشيته. .

ولقد حاول تغيير بعض التقاليد والعادات المنكرة، فأفلح في كثير وأخفق أحياناً. . ولكنه على أية حال يبدو لك صارماً لا يخاف في الحق لومة لائم. في كل موقف يرى فيه استحلال حرمة من حرمات الله تعالى. . يقول ابن بطوطة عند ذكر ولايته القضاء بجزائر الصين:

فأول ما غيّرتُ من عوائد السوء: مكث المطلقات في ديار المطلّقين. . ثم شدّدتُ في إقامة الصلوات، وأمرت الرجال بالمبادرة إلى

الأزقة والأسواق إثر صلاة الجمعة.. فمن وجدوه لم يصلِّ ضربته وشهّرته.. وألزمتُ الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتّبات المواظبة على ما هم بسبيله، وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك.. وجهدت أن أكسوَ النساء، فلم أقدر على ذلك..

إنه لم يكن رحالة وحسب.. لقد كان رجلاً فذّاً من رجال التاريخ الذين لا تجودُ رحمُ الزمان بأمثالهم كل يوم.. وشخصيته متكاملة بحقّ.. فهي عظيمة.. من أي جوانبها أتيتَها ألفيتَها شامخة شموخ الجبال الرواسي..

وتطالع هذه المعلمة الخالدة التي سماها صاحبها «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».. فلا تجد سطراً إلا وفيه

عجيبة أو غريبة.. ولا تملك بعد ذلك إلا أن تقرَّ له بأنه أمير الرحالة المسلمين كما وصفته أطالس جمعية كمبردج وكتبها.. أو بأنه المستكشف الذي لا يعرف التعب كما جاء عنه في دائرة المعارف الدولية..

تطالع الرحلة.. فتلفي ابن بطوطة عالماً من أولئك العلماء الشموليين النادرين.. فإذا تحدث في تقاليد الناس وعاداتهم، قلت: عالم اجتماع فذ.. وإذا تكلم في الصيرفة والمال قلت: خبير مصرفي متميز.. وإذا وصف البلاد وغلّاتها.. والأرض وتضاريسها قلت: هو الجغرافي الفريد.. ثم إن ابن بطوطة قبل ذلك وبعده رجل علم فذ.. حفظ القرآن صغيراً.. وتفقه على مذهب الإمام مالك، وقرأ كتب

السنـة.. والعربيـة.. والتاريـخ.. وتعلم في تـطوافه اللغـات.. فجمع أسبـاب الشخصية العالمية النـادرة من كل جهاتها!.. رحمـه الله وجزاه خير الجزاء...

* * *

إقـــــرأ

في الحلقة التالية

الحاجب

المنصور بن أبي عامر

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦-٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧-ص.ب: ١٥٠٢٥/١٣ بيروت - لبنان

الحاجب

المنصور بن أبي عامر

أعلام من المغرب والأندلس

١٠

الحاجب

المنصور بن أبي عامر

تأليف

سيف الدين الكاتب

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢م

مؤسسة عز الدين

للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦-٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧-ص.ب: ١٣/٥١٥١ بيروت - لبنان

الفصل الأول

- ١ -

الوزارة في الأندلس

في مقـدمته، عقـد العلامـة ابن خلدون فصلاً عن ألقاب الملك والسلطان ومراتبها فميز بين الوزراة والحجابة في بلاد الأندلس. . ونحن ننقل لك هنا بعض كلامه على ذلك في معرض ترجمتنا اليـوم للحاجب المنصـور. . يقول ابن خلدون في حديثه عن الوزراة:

«أما دولة بني أمية بالأندلس، فقد أنِفوا اسمَ الوزير في مدلوله أول الأمر، ثم قسموا خطته [أعماله ووظائفه] أصنافاً، وأفردوا لكل صنف وزيراً، فجعلوا لحسبان المال وزيراً وللمراسلات وزيراً، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر في أحوال أهل الثغور [أي المرابطين للفتح والجهاد] وزيراً. . وجُعِل لهم بيت يجلسون فيه على فُرُش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك، كلٌّ فيما جُعِل له. وأُفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم [مرتبة] بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسُه عن مجالسهم، وخصّوه باسم الحاجب. .

« ولم يزل بهم هذا الشأن إلى آخر دولتهم، فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر

الـرتب، حتى صـار ملوك الـطوائف ينتحلون لقبها».

وعن الحجابة يقول العلامة ابن خلدون:

«هـذا اللقب كان مخصـوصاً في الـدولة الأمـوية والعبـاسيـة بمن يحجب السلطان عن العامة، ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته.. أما الدولة الأموية بالأندلس، فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فَمَنْ دونَهم، فكانت في دولتهم رفيعة غاية كما تراه في أخبارهـم»..

والذي يمكن استخلاصه بعدما طالعنا ابن خلدون.. أن نظام الوزراة في الدولة الأموية بالأندلس، كان فيه (الحـاجب) الذي يقـوم

بعمل رئيس الوزارة اليوم، ويتولى رئاسة مجلس الوزراء الذي يشرف على شؤون الدولة، وكانت عبارة عن دواوين يقوم عليها رجال يسمى كل واحد منهم (وزيراً) .

على أنّ إطلاق لفظ (الوزراة) في الدولة الأموية بالأندلس، لم يكن شائعاً كما كان في المشرق (في الدولة العباسية)، وفي (الدولة الفاطمية) في مصر وإفريقية، وربما عرفوا أسماء مقاربة نحو (ذي الوزارتين)، هذا اللقب الذي قلّدوا فيه الدولة العباسية، وكانوا يعنون بالوزارتين (السيف والقلم)، أو (المعارف والحربية) كما في أعراف اليوم.. ولكن هذا اللقب نفسه كان غالباً ما يطلق على (الحاجب) نفسه، لأنهم يريدون به الدلالة على الشخصية الثانية في الدولة، بعد الأمير أو الخليفة.

ويذكر المقّري في (نفح الطيب) أن هذه المناصب كانت متوارثة في البيوت المعلومة لذلك.. وهذا يعني أن عدوى التوارث التي غدت سنّة الحكام، قد أصابت الحجّاب والوزراء، وكان لهذا بعض محاسنه، ولكنه جرّ على الدولة كثيراً من المتاعب.. بل لقد ورّطها في منازعات وحروب أهلية كثيرة.. تماماً كما جرّ داء الوارثة في ولاية العهد الويلات على كل دولة أخذت به.

وعندما دبّ الضعف إلى أوصال الخلافة الأموية بالأندلس- بعد عبد الرحمن الثالث الناصر- ازداد نفوذ الحاجب.. حتى إن الخليفة لم يعد يملك شيئاً من أمره.. وسوف نرى كيف يتخلص الحاجب المنصور بن أبي عامر من كل

خصـومـه، حتى يصفـوَ لـهُ الجـوّ في بـلاد الأندلس.. ثم لم يلبث أن يغدو هـو الحاكم المطلق للدولة الإسـلامية في الأنـدلس، حتى دُعي له على المنابر، وضُرِبَت السكة [النقود] باسمه بعد الخليفـة، ونُسج اسمه على الملابس المنسـوجـة بـالـذهب، كـما كـان يُنسـج اسم الخليفة...

ولم يقتصـر الأمـر عـلى المنصـور بن أبي عامر.. بل لقد توارثه أبناؤه من بعده، حتى كان في تاريخ الدولة الإسلامية بالأنـدلس ما عُرف باسم (الدولة العامرية).. وإن كان ابن خلدون وكثير من المؤرخين غيره يطلقون لفظ الاستبداد العامري على دولة المنصور وأبنائه من بعده..

ولكننا نبادر بالقول : إن قيام المنصور بأمر الأندلس، أنقذ الدولة الأموية من السقوط والانهيار الذي دبّ في أوصالها بعد عبد الرحمن الناصر. . لانتهاء الأمر خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري إلى خلفاء، بعضهم كان أعجز من أن يضطلع بأعباء الخلافة، لصغر سنه. . وبعضهم لم يكن على مستوى المسؤولية. . في بقعةٍ كانت تشهد من حين لآخر أشرس مؤمرات الصليبية المحدقة بها. . وأعنف حملاتها بعد وفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر. . الذي دوّخ النصارى وألزمهم الطاعة طيلة خمسين سنة. .

من خلال هذا المنظور يمكن أن نخالف المؤرخين الرأي في مسألة استبداد المنصور بن

أبي عامر بأمور الأندلس.. بل لعل مطالعة واعية لسيرة هـذا الرجـل الظاهـرة - إن جاز التعبير - تدفعنا إلى القول بـوجوب اضـطلاح شخصية مثله بكل تبعات الحكم ومسؤولياته في تلك الآونة الحرجة من تاريخ الدولة الإسلامية في بلاد الأندلس.



- ٢ -

السطور الأولى في قصة المنصور

قبل أن ينصرم القرن الهجري الأول. وبالتحديد في سنة (٩٢ هـ - ٧١١ م) كانت جيوش الفتح الإسلاميّ تعبر المضيق الفاصل بين قارتي أوربا وإفريقية.. بقيادة الفاتح العظيم طارق بن زياد اللخمي..

وجاز (طارق) بمراكبه ذلك المضيق.. ثم أخذ مواقعه عند سفح جبل هنالك، لم يزل

يحمل بكل الفخر والاعتزاز.. اسم الفاتح المظفر إلى يوم الناس هذا..

وبث طارق بن زياد بعض الحملات الاستطلاعية، قبل أن يتخذ مع أصحابه قرار الزحف لفتح الأندلس.. ثم وجه من هناك حملات قتالية، كانت إحداها مكلّفة بمحاصرة القرية التاريخية القديمة (قرطاجنة).. على الساحل الاسباني.. واتجهت الحملة بقيادة رجل عربي من بني معافر.. فنفذت المهمة الموكلة إليها أحسن تنفيذ.. واستولت على قرطاجنة.. ثم رجعت إلى حيث تجمعت جيوش الفتح في (الجزيرة الخضراء).. حيث استقرّت بعد ذلك أسرة الرجل العربي المعافري.. فاتح قرطاجنة.. والذي دخل التاريخ منذ ذلك

اليوم.. وكان يعرف باسم (عبد الملك)..

وإلى عبد الملك هذا تنتمي الأسرة العامرية التي انحدر منها المنصور بن أبي عامر.. وقد ساق ابن عِذاري المرّاكشي اسمه ونسبه فقال: «هو أبو عامر محمد بن أبي حفص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد ابن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الداخل إلى الأندلس مع طارق.. وجدّه عبد الملك نزل الجزيرة الخضراء لأول الفتح، فسادَ أهلَها، وكثُر عقبه فيها، وتكررت فيهم النباهة والوجاهة، وجاور الخلفاءَ منهم بقرطبة جماعة أحدهم: أبو عامر محمد بن الوليد، الذي عُرِف آلُ عامر جميعاً به، وقد ساد بعده ولدُه عامر، وتقدم عند الخلفاء، ووُلّي الأعمال، ومات بقرطبة، وباسمه نقش محمد [أي المنصور]

السكة [النقود]، وكـان عبد الله المكنى بـأبي حفص، والد محمد المنصـور من أهل الـدين والزهد في الدنيا، والقعود عن السلطان [أي أنه لم يكن يغشى مجلس الأمير أو الخليفة ورعاً منه وزهداً]، سمع الحديث، وأدّى الفريضة ، ومات منصرفاً من حجّـه بمدينـة إطرابلس الغـرب، وأصهر التميميين المعروفين بقرطبة ببني برطال، فتزوج بُريهة بنت يحيى بنت زكرياء، فولدت له أبا عامر المنصور، وأخاه يحيى، وكانت أم عبد الله والد المنصور بنت الوزير يحيى بن إسحاق، وزير الناصر لدين الله وطبيبه».

وقد أجمعت المصادر على أن محمداً هذا ولد سنة(٣٢٦ هـ ـ ٩٣٨ م) في خلافة عبد الرحمن النـاصر لـدين الله، وكانت ولادتـه في قريـة

(طـرّش) أو (تـركش) من أعمـال الجـزيــرة الخضـراء، وقد كـان حسن النشـأة، ظـاهـر النجابة، تتفرّس فيه السيادة ـ كما يقـول ابن عذاري ـ ولكن كان لأبيه أثر في تربيته وتنشئته على العلم والأدب، ولا عجب فقد طالما كان أبوه أحد علماء عصره الأفاضل، حتى كانت له حلقات درس في جامع قرطبة الكبير. . وكان رجلاً ديناً فاضلاً ـ كما ذكرنا آنفاً ـ فوجه ولده إلى طـريق العلم ، فطلب محمـد الحديث في حداثته، وقرأ الأدب، وقيّد اللغات على أبي علي البغدادي، وأبي بكر بن القوطية، وقرأ الحديث عـلى أبي بكـر بن معـاويـة القـرشي ـ راويـة النسائي ـ وغيره من أساطين العلم . .

والذي يبدو لنا أن والد محمد المنصور لم

يـوجهه إلى شيء من السيـاسـة، لشغـل أي منصب من مناصب الدولة كأعمامه وأجداده. . لكن المنصور كان ينزع إلى ذلك منذ حداثته، ومن هنا فقد تعمّـد الاقتراب من القصـر. . نشداناً لأمل كان يراوده، وينزع به إلى السيادة والملك. . وتسعفنا المصادر هنا بالحـديث عن الدكان الذي افتتحه محمد بن أبي عامر أمام بـاب القصر في قـرطبة . . لكتـابة العـرائض والشكاوى لمن يلتمُسون دخول القصر لحـاجة لهم. .

وقد برَع المنصـور في عمله لتلك النشأة العلمية والأدبية والدينية التي أخذه بها أبوه في صغره. . ومن هنا فقد عرفـه الناس وأحبـوه وقصـــدوه فكسب ودّهم، وبخـاصـــة فتيـــان القصر. . الذين كانوا يذكرونه بكل خير، حتى

سمعت به السيدة (صبح) زوجة الخليفة الحكَم (المستنصر بالله) بن عبد الرحمن الناصر.. فطلبته ليكتب عنها ـ كما يذكر المقريّ فترّقى إلى أن يكتب عنها، فاستحسنته ونبّهت عليه الحكَمَ المستنصر بالله.. ورغبت في تشريفه بالخدمة.. فقـرّبَـهُ الحكم وصـرّفـه في مهم الأمـانـات وأصنـافها، فـاجتهد وبـرز في كل مـا قلّده، واضطلع بجميع ما حمّله ـ كما يقول ابن عذاري في البيان المغرب.

والمصادر مجمعة على أن محمداً المنصور كان متصفاً ـ منذ حداثته ـ بالنباهة والفطنة والذكاء المتـوقّـد، والخلق الحسن، وقـد كـان الحكَم المستنصر يتخيل فيه كل صفات النُّبل والخير، فلم يزل يُقدّمه ويُؤثره حتى عينه لإدارة شؤون ولده عبد الرحمن، وذلك سنة (٣٥٦ هـ ـ ٩٦٦

م) وللمنصور يومئذ ثلاثون سنة، فبدا للحكم من نُصح المنصور وحسن نظره ما عرفه له، فلما مات عبد الرحمن بن الحكم صغيراً لم يشأ الخليفة الاستغناء عن محمد بن أبي عامر، فصرفه إلى كفالة ولده (هشام) وادارة شؤونه، وذلك سنة (٣٥٩ هـ ـ ٩٦٩ م).

وفي بعض المصادر أن الحكم أسند إلى ابن أبي عامر أثناء ذلك بعض أعمال الدولة، حيث عينه مديراً للسكة، وهي وظيفة تشبه ما يعرف اليوم بوظيفة حاكم المصرف المركزي، ثم عُين بعد ذلك قاضياً على ولايتي (إشبيلية) و(لبلة)، ثم مديراً للشرطة في عدوة المغرب، ثم قاضي القضاة بها، وكان الحكم يأمر عمّاله وقوّاده، أن لا ينفّذوا شيئاً دون مشورة ابن أبي عامر، ثم

استقـدمـه الحكَمُ إليـه إبـان إصـابتـه بمـرض (الفالج)، فأسند إليه النظر في الحشم، والجند المعسكرين في عاصمة الخلافة، فانفتح الطريق واسعاً أمام النصور، لتحقيق الحلم الذي راوده طويلاً. . ثم ما لبث الحكم أن توفي سنة (٣٦٦ هـ ـ ٩٧٦ م)، بعدما أخذ البيعة لابنه هشام ولياً للعهد من بعده.



الفصل الثاني

- ١ -

الطموحات العامرية

كانت وفاة الحكم المستنصر بالله، بداية الطريق إلى قيام الدولة العامرية.. ذلك أنه أخذ البيعة من بعده لابنه (هشام) الذي لم يكن يتجاوز العاشرة من عمره يوم وفاة أبيه.. وإن كانت بعض المصادر تشير إلى أن الحكَمَ لم يكن مطمئناً إلى سير الأمور مع ولده الغرّ بعد

وفاته.. إلا أن مصادر أخرى تذكر أنه كان يعتقد بإمكان ذلك، نظراً لإحاطة هشام بما يشبه مجلس الوصاية الذي شكله قبل موته من كبار الأعوان الثلاثة: الحاجب المصحفي، وغالب، ومحمد بن أبي عامر، ومن هنا فقد ظن أن هذا المجلس سيأخذ بيد الخليفة الطفل حتى يصبح مؤهلاً للاضطلاع بأعباء الحكم على أتمّ وجه..

وفي مصادر مغربية أخرى.. تقرأ إشارات إلى دور السيدة (صبح) في أخذ البيعة لابنها (هشام).. وإلى أن هذه المرأة الذكية التي وصلت إلى قلب المستنصر وعقله، كان أكثر ما يستهويها بريق الخلافة وحياة القصور.. وهو الجانب الذي طغى على تفكيرها واهتمامها..

رغم أنها دخلت القصر كجارية من محظيات الحكم المستنصر. . ثم لم تلبث أن أصبحت هي الشخصية القوية في قصر الخليفة، خاصة بعد إنجابها (هشاماً) الابن الوحيد للخليفة. . ومن ثم صار لها المقام الأول، لا يُردّ لها قرار، ولا تُناقَشُ لها كلمة. .

وهذه المصادر تشير إلى أن هذه الأرملة القوية كانت وراء الرجال الثلاثة الذين شكل منهم (الحكم) ما يشبه مجلس الوصاية . . ومن ثم تشير إلى إعجابها الشديد بمحمد بن أبي عامر، حتى كان بينهما علاقة خاصة، خاض المؤرخون في تفاصيلها بعلم وبغير علم، ونحن لا نراها أكثر من علاقة الإعجاب بذلك الشاب الذكي النبيل، الذي كان يتميز عن الآخرين

بذكائه الحاد، وثقافته الأدبية الرفيعة، وشبابه المتدفق، ولسانه الذرب، وخلقه الدمث، وشخصيته النافذة..

والذي يهمنا من سير الأحداث بعد وفاة (الحكم المستنصر) أن تنافسا خفياً قام بين أعمدة الحكم الثلاثة: الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، وقائد الجيش أبي تمام غالب بن عبد الرحمن، ومحمد بن أبي عامر.. الذي كان يشغل منصب رئيس الشرطة..

كان المصحفي يتمتع بالنفوذ الأقوى باعتباره رأس السلطة التنفيذية، بينما كان غالب ابن عبد الرحمن منشغلاً بقتال النصارى على الجبهة الشمالية، ولم يكن له مزيد اكتراث لما يجري في قصر الخلافة من تنافس بين كبار

رجالات الدولة، مطمئناً إلى ما يتمتع به من شهرة عسكرية عريضة، اتسعت حتى أكسبت صاحبها تقدير الأطراف الشعبية والحكومية جميعاً..

وربما رأى ابن أبي عامر بثاقب نظرته إلى الأمور، أنّ كسب ودّ غالب بن عبد الرحمن، سيكون له أثر طيب في ترجيح كفة المستقبل لصالحه، وهو صاحب الطموحات التي لا تحدّها حدود.. ومن هنا فقد وجه العامري اهتمامه إلى هذا القائد الذي اتخذ من مدينة (سالم) قاعدة له، وتمكن من اكتساب ثقته وصداقته، بما عُرف عنه من مرونة الأسلوب وبراعته.. ثم لم يلبث أن حظي بمصاهرة قائد الجيش، وذلك بزواجه من ابنته كما يذكر ابن عذاري المراكشي وغيره..

وهكذا فقد انحصرت المنافسة الفعلية بين رجليْ القصر في قرطبة، الحاجب جعفر المصحفي، وصاحب الشرطة - يومذاك - محمد ابن أبي عامر.. ومذ ذاك شهد بلاط الخليفة الذي لُقب بـ (المؤيَّد بالله) صراعاً حاداً على الدور الأول في السلطة..

كان قصر الخليفة يعجّ بمئات الغلمان والخصيان الصقالبة، الذين غدوا مركزاً من مراكز القوى في عهد (الحكم المستنصر بالله)، فقد اشتد نفوذهم وقويت شوكتهم، حتى ظنوا أن لا غالب لهم، وأن الملك بأيديهم، وكانوا يبلغون ألفاً أو يزيدون، إلا أن اثنين منهم كانا أبرز صقالبة القصر وحرّاسه، هما (فائق) المعروف بالنظّامي - صاحب البُرد والطراز،

ويليه صاحبه (جؤذر) صاحب الصاغة، وقد كان لهؤلاء الصقالبة بزعامة فائق وجؤذر موقف معارض اتخذ شكل التمرد والثورة لاستخلاف هشام بن الحكم. . وكانوا يريدون تولية المغيرة ابن عبد الرحمن الناصر ـ أخي الحكمَ لأنه كان شاباً يستطيع الاضطلاع بأعباء الخلافة، بينما كان هشام ـ ولي العهد ـ طفلاً غريراً لا يملك من أمره شيئاً . .

وقد خطط هؤلاء الثوار لقتل الحاجب المصحفي وإعلان خلافة المغيرة، على أن يكون (هشام بن الحكم) ولي العهد بعده. . فلما أن علم الحاجب المصحفي بخطة هذه الثورة، تحرك للقضاء عليها. . فوجّه إليهم صاحب الشرطة محمد بن أبي عامر. الذي بادر

الصقالبة، فقضى عليهم وقتل المغيرة ـ هذا المرشح للخلافة ـ ومن ثم أمكن تنصيب هشام خليفة .. وبقي المصحفي سيد الأندلس.. وبقي العامري هو الرجل الثاني فيها..

ولما تم لابن أبي عامر تدبيره في الصقالبة.. تطلّع إلى مرتبة أسمى من ذلك.. وقد صادف ذلك مناسبة ملائمة، حيث استشرى خطر الحملات الصليبية على الدولة بعد وفاة الحكم.. وصادف أن أبدى المصحفي تهاوناً في مواجهتها.. فتجرّد العامري لقتال النصارى.. وقاد عدة حملات عسكرية موفقة، رفعت مكانته بين الجند، وصار له مؤيدوه من العسكريين والمدنيين، خاصةً وأنه رجع بغنائم جمّة من حملاته تلك.. فأغدق البذل للناس، وكان

لذلك أثر كبير في استمالتهم إليه دون الحاجب المصحفي، الذي كان معروفاً ببخله وفظاظته..

وبعد عودة العامري منتصراً، لم يدخر جهداً في متابعة جهوده للاستئثار بالسلطة، ومحاصرة منافسة (المصحفي) بحملات نفسية عنيفة، تزيد في عزلته وتحجيمه، بيد أن المعركة السياسية بين الخصمين الكبيرين لم تكن سهلة، فالمصحفي لا يزال قابضاً بيده على مقاليد الأمور مستأثراً بالسيطرة على المناصب الحساسة في الدولة..

ولكن العامري استطاع بعد انتصاره في رد الحملات الصليبية على شمالي البلاد.. أن يكسب ثقة الخليفة ـ الصورة ـ ولم يزل به حتى انتزع منه مرسوماً يقضي بخلع حاكم قرطبة

وتعيينه مكانه، ولم يكن حاكم قرطبة غير محمد ابن جعفر المصحفي، ولم يكن عزل ابن المصحفي في الواقع غير مقدمة للإطاحة بأبيه، الذي شعر بالحصار السياسي والمعنوي المضروب حوله من قبل القصر والجيش على حد سواء، وأخذ كرسي الحجابة يهتزمن تحته، وهو يتراجع آيباً من هزيمة إلى أخرى.. في وقت كان العامري ينتقل فيه من نصر عسكري إلى نصر سياسي . . وبعد حملته الثالثة على الإسبان النصارى تمكن من استصدار مرسوم خلافي يقضي بتعيين حليفه القائد غالب بن عبد الرحمن شريكاً للحاجب المصحفي في وظيفته (الحجابة) أو ما نسميه اليوم رئاسة الوزراء وكانت هذه مهزلة لم يعرف التاريخ مثلها، وقد جاء ذلك بمثابة السهم الأخير الذي استهدف به

ابنُ أبي عـامر مـركـزَ الحـاجب المصحفي السياسيَّ.. ثم جاءت الضربة القاضية بعـد ذلك بصدور مرسوم يقضي بعزله من منصبه نهائياً، وزجّه في السجن بتهمة استخدام أموال الدولة وصرفها في شؤونه الخاصة.. وكان المرسوم يقضي كذلك بتكليف ابن أبي عامر بالاضطلاع بأعمال الحجابة بعـد عزل المصحفي، وتم ذلك سنة (٣٦٧ هـ - ٩٧٨ م).



- ٢ -

الدولة العامرية

منذ أيامه الأولى في ظل خلافة هشام الصورية.. بدا أن العامري كان يخطط لإقامة دولة بديلة عن دولة الخلافة، التي لم يبق منها شيء غير مراكز القوى الثلاثة المتمثلة في منصبه ومنصب كل من منافسَيه (غالب) و(المصحفي)..

وقد بادر ابن أبي عامر بتكوين حاشية

جديدة، بعدما قضى على جموع الصقالبة..

وقد كان العامري أقدر الناس على تأسيس الحاشية المطلوبة، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أثر تأليفه لقلوب العامة والخاصة يوم كان يشغل منصب قاضي القضاة بعدوة المغرب، ولا يمكن أن نغفل في هذا الصدد أثر معاملة العامري الناس بالجود والكرم والسخاء، فلما أراد تكوين حاشيته الجديدة استعان ببربر المغرب، فرتّب منهم جنداً، واصطنع أولياء له، وعرّف منهم العرفاء، فتغلب بذلك على هشام، كما يقول ابن خلدون.. واستولى على الدولة، وملأ الدنيا، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك، والاستبداد بالأمر..

وعندما تخلص ابن أبي عامر من منافسه

الأول (جعفر المصحفي) بزجه في السجن، بدأ خطوته الأولى لتأسيس الدولة العامرية.. وذلك يوم أصدر أوامره سنة (٣٦٨ هـ ـ ٩٧٩ م) ببناء مدينة (الزاهرة).. التي تشير تسميتها إلى إرادته منافسة مدينة الزهراء التي ابتناها الخليفة الناصر لدين الله.. وقد استغرق بناء الزاهرة نحو سنتين، وفي سنة (٣٧٠ هـ ـ ٩٨٠ م) انتقل المنصور بن أبي عامر إليها، ونزلها بخاصّته وعامته، فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته، وأمتعته وأمواله، واتخذ فيها الأعمال والدواوين، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكُتّابه وحجّابه وقوّاده، وقامت بها الأسواق، وتنافس الناس في الانتقال إليها حتى اتصلت اطرافها بأطراف قرطبة.. وهكذا أفرد العامريُّ الخليفةَ من كل شيء إلا من الاسم الخلافي..

وفي سنة (٣٧١ هـ ـ ٩٨١ م) مات غالب ابن عبد الرحمن، ثم مات المصحفي في سجنه في السنة التالية، وخلت بلاد الأندلس قاطبة لابن أبي عامر.. الذي امتازت سياسته الخارجية بالطابع الجهادي، منذ أن أصبح له في شؤون الخلافة كلمة نافذة..

وهكذا انعكست شخصية العامري على كل مؤسسات الدولة، وكانت خطته الجهادية المستمرة في مواجهة النصارى أكبر كسب شعبي وحكومي له، حتى لُقِّب في سنة (٣٧٢ هـ ـ ٩٨٣ م) بـ «المنصور» لانتصاراته المتلاحقة على الصليبيين الإسبان.. كما كان قد اكتسب تأييد الفقهاء والعلماء والعامة ـ على الجبهة الداخلية ـ وكانت تلك الظاهرة المميزة في تاريخ

الدولة الأموية بالأندلس. . حيث قام لأول مرة هذا التوازن الدقيق بين رجال الدولة وائمـة الدين . .

إن سياسة الجهاد عند المنصور العامري نابعة من الخلفية الدينية التي نشأ عليها. . وإنا لنراه أكثر حكام الأندلس الأموية ارتباطاً بهذه السياسة وتحمساً لها، فهو الوحيد الذي أعطى من وقتـه وجهده كـل ما أعـطى للحمـلات العسكرية التي كان يقودها بنفسه. . والتي نافت عـلى خمسين حملة، لم يهـزم لـه في أيّ منهـا جيش. .

وهذا يعني أنه كان يقوم بأكثر من حملة حربية في العام ضد الإسبان في ليون وقشتالة

ونافار وغيرها من مقاطعات النصرانية ومواقعها..

وقد تميز طابع المنصور الجهادي بالسياسة الهجومية، فكان ينتزع المبادرة من أعدائه الذين أُرغموا على تغيير استراتيجيتهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع.. وهذا الواقع في العلاقات العسكرية بين الجانبين، لم نجد له نظيراً في العهود السابقة.. حتى في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله..

وإذا لم نكن هنا بسبيل تتبع حملات المنصور العسكرية جميعاً.. فإننا نقتصر على ذكر ما عدّه لسان الدين بن الخطيب أشدها عنفاً وأبعدها أثراً، وهي حملة (قشتالة) التي تمت سنة (٣٩٠ هـ - ٩٩٩ م) أي قبيل موت المنصور بنحو سنتين..

وفي هذه الحملة جابه المنصور تكتل القوى الإسبانية جميعاً بزعامة الملك (شنجة)، في معركة طاحنة عند جبل (جربيرة)، ومرة أخرى حالفه النصر الباهر، وأوقع بالزعماء الإسبان هزيمة ساحقة كما ذكر ابن الخطيب في أعمال الأعلام..

ويبدو أن معركة (جربيرة) كانت آخر أعمال المنصور العسكرية المهمة ضد الممالك النصرانية الإسبانية، لم يهزم خلالها في معركة ما، بل كان النصر حليفه على مختلف الجبهات التي خاض فيها معاركه السياسية والعسكرية، وهو أول حاكم تعرفه الأندلس أعطى لجبهة الشمال ذلك الاهتمام، وكرس هذا الوقت.. ولا ريب أن سنوات قيامه على قمة السلطة في

الأندلس، والتي لم تتجاوز سبعاً وعشرين سنة، كانت كابوساً رهيباً، أذاق ملوك الإسبان الخوف والذعر والدمار والهزائم..

أما على صعيد الأندلس، فقد رفعت هذه الانتصاراتُ العظيمة المنصور العامريَّ إلى مصاف الأبطال الأفذاذ الخالدين، ومنحته تأييداً شعبياً واسعاً.. انعكس من ناحية أخرى على أوضاع الأندلس الاجتماعية والاقتصادية، التي سادها الرخاء والاستقرار، مما أعطى عهد المنصور طابعاً خاصاً مميزاً في تاريخ الأندلس..

وفي رمضان من سنة (٣٩٢ هـ - ١٠٠٢ م) توفي المنصور بن أبي عامر، وقد ناف على الستين سنة، بعد حياة طويلة مليئة بالعمل الدائب، الذي اختصر فيه منجزات عهود

وعهود، وقد روى لسان الدين بن الخطيب أن المنصور كان مدمناً على العمل ومراجعة شؤون الدولة حتى ساعة متأخرة من الليل إلى آخر أيام حياته، وكان إذا طلب منه أن يخلد إلى الراحة يقول: لو استوفيت نومي، لما كان في دور هذا البلد عين نائمة !..

* * *

الفصل الثالث

في ذمة التاريخ !..

أجمع المؤرخون على أن المنصور بن أبي عامر كان يتحلى بشخصية متميزة منذ حداثته، وقد كان في أخلاق هذا الرجل المرشح لتلك المهمات الصعبة.. كل الصفات التي تؤهل العظماء لتبوّىء الكانة المرموقة التي رشحتهم الأقدار لها عن جدارة واستحقاق..

وقد قالوا في المنصور ووصفوه بأنه كان ذكياً

حاد الذكاء، كريماً غاية الكرم، حسَنَ الخُلق، ذرِبَ اللسَان، حازماً عادلاً صبوراً على المكاره، وكان معروفاً بالفطنة والدهاء ومن أطـرف ما رواه ابن عذاري المرّاكشي من حكايات فراسته ودهائه قوله :

كان جالساً في بعض الليالي، وكانت ليلة شـديدةّ البـرد والريـح والمطر، فـدعا بـأحـد الفرسان، وقال له: انهض إلى فـجّ [طريق] «طليارش» وأقِمْ فيه؛ فأول خاطر يخطر عليك سُقْهُ إليّ. . فنهض الفارس، وبقي في الفج في البرد والريح والمطر واقفاً على فرسه، إذ وقف عليه قربَ الفجر شيخ هرِم على حمارٍ له، ومعه آلة الحطب. . فقال الفارس : إلى أين تذهب أيهـا الشيـخ ؟! فقـال: احـتـطب ! . . فقـــال

الفارس في نفسه: هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطباً، فما عسى أن يريد المنصور منه ؟! فتركه، فسار عنه قليلاً ثم تذكر الفارس قول المنصور وتفكّر فيه فخاف سطوته، فنهض إلى الشيخ وقال له : إرجع إلى مولانا المنصور. . فقال: وماعسىٰ أن يريد المنصور من شيخ مثلي ؟! سألتك بالله أن تتركني لطلب معيشتي. . فقال له الفارس : لا أفعل، ثم قدم به على المنصور، فإذا هو جالس لم ينَمْ ليلته تلك، فقال المنصور: فتِّشوه، ففتّشوه فلم يوجد عنده شيء، فقال المنصور فتّشوا برذعة حماره. . ففتشوها فوجدوا داخلها كتاباً من نصارى كانوا يتظاهرون بخدمة المنصور. . إلى أصحابهم من النصارى الذين يدعونهم للتآمر على أمن الدولة الإسلامية. . فلما انبلج الصبح أمر بإخراج

أولئك النصارى إلى باب (الزاهرة) فضربت أعناقهم وضربت رقبة الشيخ معهم..

لقد كان المنصور يتمتع بأخلاق قيادية منذ حداثته، ولكن الذي كان يميزه عن شخصيات كثيرة من رجالات الدولة.. أن المنصور كان متسماً بصحة باطنه، وكان يعترف بذنبه، وكان شديد الخوف من ربه،وكان إذا ذُكّر بالله ذكر، وإذا خُوّف من عقابه ازدجر.. ولم يزل متنزّها عن كل ما يفتتن به الملوك.. وكان في عدله في الخاصة والعامة مضرب المثل بحق، وله في ذلك حكايات كثيرة، يمكن أن يراجعها من شاء في كل كتاب ترجم لهذا العلم الشامخ من أعلام الإسلام في الأندلس..

وأمثال المنصور.. لا تجودُ بهم رحِمُ

التاريخ إلا قليلاً.. لقد استطاع المنصور أن يحفظ على الأندلس وحدتها وتماسكها، على خطى الخليفة الناصر لدين الله.. وهكذا كان بين الناصر والمنصور صلةٌ ورحم.. وإن لم ينصف المؤرخون ـ إلا قليلاً ـ هذا الرجل الذي نشأ تلك النشأة العادية البسيطة.. ثم لم يزل يعمل ويجدّ حتى كان أعظم رجال عصره غير منازع.. لم ينصفوه كما أنصفوا الخليفة الناصر.. ووصفوه بالاستبداد، ولكنا نراه استبداداً أملته طبيعة الظروف.. ولا شك أن تلك الفترة الحرجة من تاريخ الأندلس كانت في أمسّ الحاجة إلى رجل حازم عادل كريم متوقد الذكاء، موفور الحيلة والدهاء كالمنصور..

وربما كان جزع المنصور يرجع إلى إدراكه

ذلك كله.. وهو يسلم إلى غيره مستقبل الدولة التي بناها بالطموح والذكاء والإرادة الجبارة.. مدركاً أنها لن تعيش طويلاً بعد غيابه.. فهذا قدر الدول التي يرتبط مصيرها بالأفراد.. فتصعد بالشخصيات الفذّة، وتهبط بالضعفاء.. وهذا ما انطبق تماماً على دولة الأندلس بعد غياب المنصور.. أحد هؤلاء العظماء الذين صنعوا الدولة ولم تصنعهم .. فكان غيابه كارثة.. ومؤشراً على النهاية المؤسفة..



إقرأ

في الحلقة التالية من هذه السلسلة

ابو العباس بن القاضي

صدر للمؤلف

١ - أعلام الصحابة
٢ - الاكليل في استنباط التنزيل ـ للسيوطي - تحقيق.
٣ - الأوائل في حضارة الإسلام.
٤ - رسائل في العدل والتوحيد.
٥ - روضة الناظر - لابن قدامة - تحقيق.
٦ - السيرة النبوية في قصص.
٧ - شرح ديوان جميل بثينة - مع أحمد عصام الكاتب.
٨ - شرح ديوان أمية بن أبي الصلت - معه أيضاً.
٩ - شرح ديوان النابغة - معه أيضاً.
١٠ - شرح ديوان ذي الرمة - معه أيضاً.
١١ - شرح ديوان عنترة - معه أيضاً.
١٢ - فهارس (الكامل في التاريخ - لابن الأثير).
١٣ - قصص الأنبياء - الطبعة الثانية.
١٤ - كتاب الزيارة - لابن تيمية - تحقيق.
١٥ - مشاهير الفاتحين.
١٦ - هداية الحيارى - لابن القيم - تحقيق.

* * *

